

دستور أمة الإسلام
دراسة في أصول الحكم وطبيعته
وغايته عند المسلمين

د. حسين مؤنس



دستور أمة الإسلام

طبعة خاصة
تصدرها دار الرشاد
ضمن مشروع مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع ٩٨
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(أعمال دينية)

الناشر : دار الرشاد

دستور أمة الاسلام

د. حسين مؤنس

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف

الإشراف الفني:

للفنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التوعوية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلمتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

من أَلطف ما يدرسه الإنسان في الإسلام دستوره ، فإن دين الإسلام دستور ، وهو دستور بسيط واضح إنساني ، وكان رسول الله ﷺ شديد الحرص على شرح دستور الإسلام للناس بأسلوبه الواضح وبطريقته في التصرف . ومن الجدير بالذكر أنه صلوات الله عليه كان هادئاً متمكناً من أعصابه . ومهما نقرأ في سيرته لا تجده أبداً عصبياً أو غاضباً أو خارجاً عن هدوئه ، وكان الناس يخطئون في التصرف فلا يغضب وإنما هو يكلم الناس في هدوء . ومن أمثلة ذلك أنه انتدب واحداً من الصحابة لأخذ الصدقات من إحدى القبائل ، فعاد الرجل بعد عام وقال : هذا لكم ، وهذا لي . . يريد أن الناس أعطوه الصدقات (وهذه للمسلمين) وأعطوه إلى جانبها هدايا له ، فلم يقل له الرسول شيئاً ، وإنما صعد على المنبر وقال : ما بال أحدكم أبعثه على الصدقات فيعود إلينا ويقول : هذا لكم وهذا لي . هلا بقى في قبيلته ليرى إن كان الناس يعطونه شيئاً لنفسه ، إن كل المال لنا جماعة المسلمين ونحن نتقاسم هذا المال . والرجل عندما بلغه ذلك ذهب إلى الرسول وقال له : هذا كل المال يا رسول الله ، وأنا ليس لي من

هذا المال شيء ، وسلم المال للرسول ، والرسول أعطاه لأبى بكر
وقال : هذا المال للمسلمين كلهم ياأبا بكر ، ولم يزد الرسول على ذلك
كلمة .

وأنا عندما أقرأ فى الإسلام أبحث دائماً عن دستور ، أى قانونه
الأخلاقي ، ومن المعروف أن الإسلام له عباداته وأخلاقه ، فإن
العبادات : وهى الصلاة والزكاة والصيام والحج وكلها لله ، وبقية
الإسلام أخلاق وهذه هى دستور الإسلام ، وإذا أنت احتجت إلى
سنة لدراسة العبادات فأنت تحتاج إلى عمرك كله لدراسة دستور
الإسلام . فهو قاعدة الحياة وأصل الحياة الإسلامية أو هو من أجمل
ما يدرسه الإنسان ، وأنت مهما تقرأ وتدرس فأنت لا تحيط بدستور
الإسلام كله ، ثم إنه مجال حر للفكر والدراسة والتجربة .

دكتور / حسين مؤنس

قافلة خرجت تقصد الغد فضاعت فى رمال الماضى

قالوا : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه ..
وقالوا : تعامل الناس بالدين حتى ذهب الدين ، وبالحياء حتى ذهب
الحياء ، وبالمرءة وقد صاروا إلى الرغبة والرغبة ، وأخربهما أن يذهبا .

كانت الأجيال الأولى من المسلمين على مثال من الالتزام بهدى الإسلام
ومكارم أخلاقه ، ومن الفهم لروحه وغاياته على مستوى لا يصدق ، وأقرأ هذه
الرسالة التى كتبها أبو بكر لتقرأ على الناس عند استخلافه عمر بن الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ماعهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند
أول عهده بالآخرة داخلها فيها حيث يؤمن الكافر ، ويوقن المرتاب الفاجر ،
ويصدق الشاك المكذب : إني استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب
فاسمعوا له وأطيعوا ، فإننى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً فإن عدل
فذاك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخير أردت
وما يعلم الغيب إلا الله ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ثم أمر بالكتاب فختم .

واقراء هذه الرسالة لعمر ، وقد رواها الجاحظ فى البيان والتبيين :

« كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ياسعد ، سعد بن أهيب ، إن الله إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ماله عندك » ، وأقرأ هذه الرسالة من عمر إلى قواده زمن اليرموك » ، قال سهاك سمعت عياضاً الأشعري قال : « شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء ، أبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبو سفيان ، وشرجيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، قال : وقال عمر : إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة قال : فكتبنا إليه : إنه قد جاش إلينا الموت . . واستمددناه ، فكتب إلينا : إنه قد جاء في كتابكم تستمدونني ، وإنني أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً ، الله عز وجل ، فاستنصروا فإن محمداً ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم فإذا أناكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني .

قال : فقاتلناهم فهزمناهم » .

ويحكى البلاذري في أنساب الأشراف أن عمر بن الخطاب دخل على أبي عبيدة بن الجراح في دويرية كان قد اتخذها لنفسه بعد أن سلم أهل القدس على أمان عمر ، وأبو عبيدة إذ ذاك أميرهم فما وجد عنده إلا حصيراً ووساد وقطيفة يغطي بها إذا نام ، ووجد عنده صحيفة فيها زيت وملح ومعها كسرة خبز وجرة ماء فاستحيا عمر من أبي عبيدة وقال له : اتق الله في نفسك يا أبا عبيدة فإن الله أحل لك أكثر من هذا ، وأنت أمير تنفعك الشارة ، فقال أبو عبيدة : ليس لي عند الله وعند المسلمين إلا ما يظلمني ويسد جوعي ويروى ظمئي ، أما الشارة يا عمر فهي الإسلام .

فبكى عمر بكاء شديداً جداً حتى أقبل عليه أبو عبيدة يسأله أن يخفف عن نفسه ويرفق بها فقال : دعني أبكي يا أبا عبيدة فإنما بكائي محبة لرسول الله الذي أخرج مثلك . . .

فهذه الأخبار كلها إسلام وإيمان . . وهؤلاء ناس كانوا يعيشون الإسلام ، لأنهم فهموه وتمثلوه حتى صار كما يقول أبو عبيدة شارتهم أى مظهرهم وجاههم ودليل قوتهم .

ولست أضرب هذه الأمثلة على سبيل الوعظ ، فلست بالواعظ ولا أصلح أن أكونه ، إنما أنا مؤرخ ولى من وراء هذه المثل أفكار تتعلق بتاريخ أمة الإسلام وما فعلت بنفسها أمة الإسلام .

* * *

وكانت الأجيال المتأخرة من المسلمين على مثال من البعد عن الإسلام وروحه والزهدي في الحق ومكارم الأخلاق على درجة لا تصدق

واقراً الكلام التالي الذي كتبه ابن المقفع يؤيد السلطان ويخوِّله الحق في التصرف في شئون الأمة كيف شاء . « إن الناس يقولون بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحد منا عليهم حسيباً ، هم ولاة الأمر وأهل العلم ، ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم ، قال ابن المقفع ولا أذهب هذا المذهب ، وإن كنت أقول : إن طاعة السلطان واجبة ولكن الشورى تنفع السلطان ، فصاحب الرأي يقول ما عنده مع النوقير التام للإمام لأن للإمام الطاعة التامة في كل ما يراه من صالح الرعية » ، وهذا كلام لم يعرفه الإسلام بل جاء الإسلام ليزيله .

واقراً هذا الكلام من كتاب « التاج » الذي يعتبر من معالم تاريخ الفكر السياسي في الإسلام وإن كنا لا نعلم من مؤلفه ، ولكننا نقطع بأنه ترجم من الفارسية بأمر خلفاء بني العباس ما بين سنتي ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م

أى فى عصر خلافتى المتوكل والمستعين من خلفاء بنى العباسى ، وهو عصر انتقل فيه السلطان من الخلفاء إلى الوزراء ومعظمهم فرس من أمثال ابن الزيات وأبى جعفر الجرجانى وأبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخراسانى ممن لم يعرفوا بخلق أودين أو قرب من روح الإسلام .

وهذا الكتاب غير الإسلامى الفكر والروح . نشر - برأى طه حسين . وترجم إلى الفرنسية وصدر من مطبوعات اليونسكو على أنه من روائع الفكر الإسلامى . فتأمل والله مبلغ الإساءة إلى الإسلام على يد أهل الإسلام .

ثم نلوم الآخرين ونحمل على من نسمة أعداء الإسلام .

وبعد ذلك بنحو مائة سنة وفى حكم البويهيين وهم إيرانيون ديلم من أهل طبرستان جنوبى بحر قزوين وكانوا أبعد الناس عن الإسلام وروح الإسلام ، فى حكم هؤلاء يكتب أبو الحسن على الماوردى كتاب « الأحكام السلطانية » خدمة لسادته السلاطين لا للإسلام ، فهذا الكتاب الذى يحسب الناس أنه من خير ماكتب فى الحكم الإسلامى ليس فيه من الإحساس بالإسلام أو الإدراك لحقيقته ذرة واحدة ، فهو يضع السلطان فوق الإسلام ويجوز الغضب والاستبداد ، ويقول إن أهل رأى (وهم أولئك الوزراء وحواشيهم) إذا عقدوا بيعة إمام لا يجوز نقضها لمخلوق لأن الرعية والمراد بها هنا - وللأسف - أمة الإسلام - عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للإمام ماوسعتهم الطاعة ، ولا يحل لهم القيام عليه بحال ، فهو ولى الأمر وهو أعرف بمصالح البلاد والعباد وهو لا يرى بأساً فى أن يحجر على هذا الإمام وزير مستبد ، ويتصرف فى شئون الخلق كيف يشاء وعلى الناس الطاعة ، وهو يعلل ذلك بأن هذا الإمام يقوم بحفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة وتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم وحماية البيضة والذئب عن الحريم ليتصرف الناس فى المعاش . . . إلى آخر هذا

الكلام الذى هو تمسّح فى الإسلام ، فما كان أولئك المستبدون بالأمر ليقوموا
ميزان عدل ولا شارة إسلام ، إنما هم أهل بغى وفساد ، وقد لعنهم أبو حيان
التوحيدى وكشف حقيقة أمرهم فى كتابه « مثالب الوزيرين » ومن أقوال الماوردى
الغريبة فى الأحكام السلطانية قوله : إنه إذا وقع الحجر على الخليفة من قبل
أعدائه ممن استبد بتنفيذ الأمور من دونه فلا يمنع ذلك من إمامته شريطة أن تكون
أفعال من استولى على أمور الإمامة جارية على أحكام الدين ومقتضى العمل .

وهذا كلام لا يقبله العقل لأن الإمام إذا كان قد تولى برضى الأمة فهو يحكم
بسلطان الأمة فكيف يحجر عليه رجل لا ترضاه الأمة ويتصرف فى أمور الناس
ويكون تصرفه مع ذلك جائزاً أو شرعياً ؟ فهل هذا رأى الإسلام أو قول الحق ،
أو هو رأى أبى الحسن الماوردى نفسه ؟ لا عجب أن نجد هذا الماوردى الذى
توفى فى ربيع الأول ٤٥٠ / مايو ١٠٥٨ عن ست وثمانين سنة هجرية مكروهاً من
أهل الفقه والعلم فى زمانه ، مطعوناً عليه فى أمانته وعلمه .

ولكن هذا الماوردى وكتابه « الأحكام السلطانية » يعتبران عندنا اليوم -
وحتى على المستوى الجامعى - أصليين من أصول التشريع الإسلامى ، وفى كل
الكتب عندنا يتحدث أساتذة محترمون بعضهم أزهيون عن جواز الحجر على
الإمام وجواز ما يسمى بإمارة الاستيلاء وإمارة التفويض وإمارة التنفيذ وما إلى
ذلك مما هو بعيد كل البعد عن أى مفهوم إسلامى .

وبيلغ الأمر فيما يتعلق بضياع أصول الحكم ومفهومه وغاياته عند
المسلمين ، أن الإمام أباً حامد الغزالى نفسه وهو حجة الإسلام لا يهمله شخص
من يحكم الأمة ولا خلقه أو عدالته شريطة أن يحفظ دار الإسلام من العدوان .
وهو فى هذه الحالة لا يرى بأساً بولاية الظالم والجائر والفاسق مادامت له قدرة على
حماية الحدود والسيطرة على الناس ، وربما التمسنا العذر للغزالى فى ذلك إذا عرفنا
أنه كان فى المقام الأول رجلاً مسلماً مؤمناً يخاف على الإسلام ومصيره فى عصره

الذى يعيش فيه ، فقد عاش فيما بين سنتى ٤٥٠ و ١٠٥٨/٥٠٥ - ١١١٢ فى عصر اضطراب وفوضى وأخطار محيطة بالإسلام من داخل ومن خارج ، فقد كان موجوداً عندما بدأ العدوان الصليبي على بلاد الإسلام .

وفى هذا المعنى يقول الغزالى فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد (ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢١٧) : « ليست هذه مساحة من الاختيار أى اختيار الإمام الصالح - ولكن الضرورات تبيح المحظورات فنحن نعرف أن تناول الميتة محظور ولكن الموت أشد منه ، فليت شعرى من لا يساعد على هذا ويقضى ببطلان الإمامة فى عصرنا لفوات شروطها . وهو عاجز عن الاستبدال بالتصدي لها ، بل هو فاقد للمتصف بشروطها فأى أحواله أحسن أن يقول : القضاة معزولون والولايات باطلة والأنكحة غير منعقدة وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العالم غير نافذة ، وإننا الخلق كلهم مقدمون على الحرام . أو أن يقول : الإمامة منعقدة والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار . فهو بين ثلاثة أمور : إما أن يمنع الناس من الأنكحة والتصرفات المنوطة بالقضاة ، وهو مستحيل ومؤد إلى تعطيل المعاش كلها ، ويفضى إلى تشتيت الآراء ومهلك للجماهير والدماء ، أو يقول : إنهم يقدمون على الأنكحة والتصرفات ، ولكنهم مقدمون على الحرام إلا أنه لا يحكم بفسقهم ومعصيتهم بضرورة الحال ، ومعلوم أن البعيد مع الأبعد قريب ، وأهون الشرين خير ، يجب على العاقل اختياره » .

وخلاصة هذا أن يبيح هذه الولايات الفاسدة ليتقى بذلك شرأ أكبر وهو الفوضى وضياع أمر الإسلام ، ولكن ذلك لا يمنع من القول أن رأيه هذا إنما هو تبرير ، ولكنه ليس حكماً صالحاً يتفق مع روح الدين .

وقد استند التفكير السياسى للغزالى على التسليم بالواقع فى عصره دفعاً لما هو أسوأ ، لأن الأمر الذى كان يهيمه هو استمرار الإسلام واستمرار الحكم

بشريعته ، ومن هنا فهو يفرق بين الإمام ، وهو صاحب السلطة الشرعية بتفويض الأمة ، والسلطان وهو صاحب السلطة الفعلية بما له من قوة وسلطان (عسكري) أو العلماء وهم الذين يتولون تنفيذ أحكام الشريعة وتطبيقها . وهذا التفكير مقبول في الظروف الخطرة التي عاشت فيها أمة الإسلام في عصر الغزالي . ولكنه غير مقبول كنظرية شرعية سليمة نابعة من الإسلام .

وفي هذا يقول الغزالي في نفس الكتاب : « إن تولية الإمام لا تتم إلا من أحد ثلاثة : إما التنصيب من جهة النبي ﷺ ، وإما التنصيب من جهة إمام العصر بأن يعين لولاية العهد شخصاً معيناً من أولاده أو سائر قریش ، وإما التفويض من رجل ذي شوكة يتقى وتفويضه متابعة للآخرين ومبادرتهم إلى المبايعه ، وذلك قد يسلم في بعض الأعصار لشخص واحد مرموق في نفسه مرزوق بالمتابعة مسئول عن الكافة ، ففي بيعته وتفويضه كفاية عن تفويض غيره ، لأن المقصود أن يجتمع شتات الآراء لشخص مطاع ، وقد صار الإمام بمبايعته لهذا المطاع مطاعاً .

وينتهي الأمر بتسليم أهل العلم بإمامة المستبد الغاصب مادام قوياً مرهوب الجانب قادراً على ضبط الأمور وتنفيذ أحكام الشريعة التي يصدرها القضاء وأهل الحل والعقد ، ويعبر عن هذا الرأي الفقيه محمد بن إبراهيم بن جماعة (٦٣٩ - ٧٣٣ هـ - ١٢٤١ - ١٣٣٢ م) وهو من كبار الشيوخ وأهل العلم في العصر المملوكي . وفي ذلك يقول : « فإذا خلا الوقت من إمام ، فتصدى لها (للإمامة) من ليس من أهلها ، وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو اختلاف انعقدت بيعته ولزمت طاعته ، لينتظم شمل المسلمين وتجتمع كلمتهم ، ولا يقدر في ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً في الأصح .

وإذا انعقدت الإمامة بالشوكة والغلبة لواحد ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده انعزل الأول وصار الثاني إماماً لما قدمناه من مصلحة المسلمين وجمع كلمتهم » .

وقد يقبل هذا الكلام على أنه حكم الضرورة ومادام الإمام الصالح المستوفى شروط الإمامة غير موجود فلا بأس بالتسليم بولاية الغاصب الجاهل الفاسق مادام قوياً قادراً على ضبط الأمور ، فهذا في رأسهم - خير من ضياع الإسلام نفسه أو تعطل أحكام الشرع .

ولكن يبقى بعد ذلك السؤال : هل هذا يتفق مع روح الإسلام ؟ وإذا نحن سلمنا بولاية الغاصب والقاتل والفاسق لمجرد استمرار تنفيذ أحكام الشرع فهل بهذا تتحقق رسالة الإسلام ؟

يقول الغزالي وابن جماعة وابن تيمية وغيرهم : إن ذلك هو حكم الضرورة والضرورة في رأيهم أن الناس فسدوا وعم الظلم والجهل وأصبحت المسألة مسألة إنقاذ اسم الإسلام . ومعنى ذلك أن المسلمين عجزوا عن تحقيق رسالة الإسلام ، لقد بعدنا جدا عن روح الإسلام وإقرأ الأمثلة التي بدأت بها هذا المقال لتدرك مدى التدهور في الفكر السياسي عند المسلمين ثم اسأل نفسك : ولماذا هذا كله ؟ لماذا فسدت الأمور وغلبت الشهوات وساد الأراذل ، والمفروض أن الإسلام جاء ليضع حداً لتدهور أحوال الناس وفساد طبائعهم وغلبة الجهال والمستبدين على أمور العباد . . قبل أن أجيبك على هذا السؤال أقف لحظة عند الفكر السياسي لابن خلدون .



إن فكر ابن خلدون السياسي لا يفترق كثيراً عن فكر أولئك الذين عرضنا عليك آراءهم في الإمامة والملك ، ولكنه أذكى منهم وأوسع علماً وأدق حساً ، ومن هنا فهو مع تسليمه في النهاية بما سلموا به يفرق بين الملك والإمام ، فالملك في رأيه ضرورة يفرضها الاجتماع الإنساني والإمامة نظام إسلامي هدفه إقامة حكم الإسلام . .

وفى هذا يقول وكلامه هنا من أقوى الأدلة على تميزه على غيره بالنظر السديد والفهم العميق ، قال : لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضرورى للبشر ، ومقتضاه التغلب والقهر للذان هما آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه فى الغالب جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم لحمله إياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من أغراضه وشهواته ، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجىء العصبية المفضية إلى المهرج والقتل ، فوجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سياسة مفروضة يسلم بها الكافة وينقادون إلى أحكامها . كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم .

فابن خلدون يقول هنا : إن الملك (بضم الميم) ضرورة يقتضيها الاجتماع الإنسانى ، وإن الملك بطبعه يميل إلى الاستبداد والجور ، لأن صاحبه يريد دائماً أن يسخر الناس لشهواته . ولهذا فلا بد لدفع مضار الملك من وجود قانون أو تشريع سياسى يضبط حدود سلطة ولى الأمر وحقوق الناس ، وهذا هو المراد بالدستور ، أى قانون تنظيم ممارسة السلطان .

ثم يقول ابن خلدون : إن هذه « السياسة » ويراد بالسياسة هنا التشريع المنظم لممارسة الحكم لا غنى عنها قط . ويستشهد بقول الله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ ويقول : فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية (أى قانوناً وضعياً) وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقرها ويشعرها كانت سياسة دينية (أى شرعاً أو شريعة) نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة .

ثم يستنكر ابن خلدون الملك والغضب بدون ضابط أو قانون أو دستور ، لأنه يكون فى هذه الحالة قهراً واستبداداً وتسخييراً للناس لشهوات الحكم (وهو مريضه وأقره الماوردى وابن جماعة وأضرابهما ، لأنها أباحا للحاكم كل فعل ،

مادام يضبط الأمن ويمكن القضاة من ممارسة القضاء وتنفيذ الأحكام .

وهو ينكر القانون الوضعي المنظم لشئون الحكم المبين لحدود سلطة الحاكم وحق المحكوم ، ويقول إنه مذموم ، لأنه نظر بغير نور الله ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾ (سورة النور آية ٤٠) . . . وأحكام السلاسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (سورة الروم آية ٧) ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة ، وهم الأنبياء ، ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء .

وهكذا يصل ابن خلدون إلى أن الخلافة هي أصلح صور الحكم : « لأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقل في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليهما ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

ومن هنا فصاعداً يتفق ابن خلدون مع بقية الفقهاء في وجوب الخلافة ، وهي عنده في النهاية ملك ديني وظيفته تنفيذ أحكام الشرع ، وابن خلدون فقيه ، والفقهاء هم الذين ينفذون أحكام الشريعة ، ومعنى هذا - في النهاية - أن الخلافة كلها في خدمة الفقهاء ، وهذا هو لباب الفكر السياسي للفقهاء جميعاً ، فمادام الحاكم يؤيدهم ويعطيهم درجاتهم ومراتبهم فهو عندهم حاكم مقبول وطاعته واجبة حتى لو كان فاسقاً قاتلاً سفاكاً كما رأينا .

ولكن هل هو لباب التنظيم السياسي النابع من الإسلام ؟ بعبارة أخرى هل هذا الفهم للحكم يتفق مع فهم أبى بكر وعمر وأبى عبيدة له ؟ . . . ذلك

هو السؤال الذى أحب أن أضعه بعد أن مررت هذا المرور السريع بتطور الفكر السياسى عند من تعرضوا للكلام فى نظم الحكم من أهل الرأى من المسلمين .

فهم يرون أن الخلافة ملك ، ولكنه ملك دينى شرعى ، فهل هذا المفهوم يتفق مع طبيعة الإسلام كما نجدها فى القرآن الكريم وفى سنة الرسول وتفكير صحابته الأولين ؟ .

واضح أن « الخلافة - الملك » ليست نابعة من الإسلام ، فلم يكن أبو بكر أو عمر خليفتين قط ، إنما كانا مواصليين لسنة رسول الله ﷺ فى قيادة أمة الإسلام وتوجيه أمورها . لهذا اكتفى أبو عبيدة من السلطان بروح الإسلام وهى الزهد فى الدنيا مع عدم التفريط فى صلاح أمرها ، فقد كان رسول الله ﷺ وصحابته يهدون الناس بالقرآن والسنة والأسوة الحسنة ومكارم الأخلاق والعدل والمساواة والأخوة .

أريد أن أقول : إن رسالة الإسلام لم تكن قط إقامة ملك إسلامى ، بل إقامة نظام جديد سياسى اجتماعى ، يقوم على الترابط والتآخى والإيثار واستبعاد سيطرة الإنسان على الإنسان ، واستبدال سلطة الملك بسلطة الضمير ، والضمير الحى الصاحى هو الذى يوجه الإنسان فى كل تصرفاته ، وهو الذى ينظم المجتمع ، وهو الذى يضمن قيام الأمة الفاضلة التى يحكمها ضميرها الإسلامى ، ولا يكون الخليفة فى هذه الحالة إلا رمزاً للعدل وضماناً للأخلاق .

لهذا أنشأ رسول الله ﷺ أمة ، أى جماعة ترجع إلى أم واحدة ، فهم إخوة ولم يقم رسول الله دولة ، لأن الدولة تحمل معنى السلطان والقوة والغلبة ، وهذه كلها لله وحده ، أما الذى لنا فهو أن تتآخى فى الله ويرعى بعضنا بعضاً حباً فى الله . وفى القرآن الكريم آيات تقول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ

كَمْ زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿ (سورة محمد الآيتان ١٣ - ١٤) ، والقرية التى هى أشد قوة من قرينك التى أخرجت « رمز على كل النظم السياسية السابقة على الإسلام ممن زين لهم سوء عملهم واتبعوا أهواءهم .

والإسلام جاء لكى تقوم عليه قرى ، أى جماعات . وأمم تختلف عن قرى الجاهلية الأولى جميعاً . ورسول الله ﷺ لو كان أراد له أن يكون نبياً ملكاً عادلاً كان ، فمن أنبياء الله قبل محمد من كانوا ملوكاً عادلين .

ولكن الله أرسل محمداً ليكون بالضبط كما قال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَذَاعِباً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ (سورة الأحزاب الآيات ٤٥ - ٤٧) . وهذا السراج المنير الذى هو بشرى للمؤمنين هو الطريق الإسلامى فى التنظيم السياسى والاجتماعى ، وهو الذى يضمن للمسلمين الفضل الكبير من الله .

لقد أحسن بذلك أبو بكر وأبو عبيدة ومن فى طبقتهم ومن تبعهم بإحسان ففتحوا أبواب الخير والسعادة لأمم بعد أمم .

وهذا السراج المنير هو الذى لم يره معاوية عندما جعل خلافة رسول الله ﷺ ملكاً مثل ملك « القرية » التى أخرجت الرسول ﷺ .

وهذا السراج المنير هو الذى لم يره أبو عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور عندما جعلوا الإمامة إرثاً عن رسول الله ﷺ . وهل هناك أبعد عن روح الإسلام من قول أبى عبد الله السفاح فى أول خطبة له على منبر الكوفة : « وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا » ؟ فهل كان المثال النبوى والسراج المنير سياسة وخلافة ؟ وأسوأ من ذلك قول عمه داود بن على

عندما رقى المنبر ليكمل خطاب ابن أخيه : « وأحيا شرفنا وعزنا ورد علينا حقنا وإرثنا . . أى أن الإمامة إرث مع أن رسول الله ﷺ قال : « نحن الأنبياء لا نوزث ، ما تركناه صدقة ؟ ، هنا نضع أيدينا على أولى خطوات ضياع قافلة الغد في رمال الماضي .

وهذا هو الذى نريد أن ندرسه لنعرف حقيقة ماحدث ، وأين ذهب النور الذى أرسله الله مع محمد ﷺ ، فقد قال الله تعالى فى سورة النور ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ نُورًا فَمَأْلَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (الآية : ٤٠) . فما هو هذا النور ياترى ؟ .

البداية عهد وميثاق

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْيَمِّ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَآخِرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللّٰهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَيَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(سورة الصف الآيات : ١٠ - ١٣)

من القواعد التي جرى عليها رواد طرق التجارة وأدلاء القوافل أن الرائد أو الدليل إذا أحس أنه ضل طريقه وخاف الهلكة ، فعليه أن يعود بقافلته إلى نقطة البداية ليبدأ السير من جديد ، فإذا لم يفعل هذا ضاع وأضاع من معه ، وهذا هو ما استفعله الآن .

فقد رأينا أن قافلة الأمة ضلت الطريق . واعتسفت سكة بعيدة عن سكة الإسلام ، وانتهت - تبعاً لذلك - إلى غاية لم يقصد إليها الإسلام . فالإسلام صراط أو طريق مستقيم يؤدي رأساً إلى مجتمع العدل والأمن والأمان والرخاء ، وكل ماتضعه عادة تحت عبارة « سعادة البشر » ، فإذا لم تصل الأمة إلى هذه الغاية فمعنى هذا أنها خرجت عن هذا الطريق ، فوصلت إلى غاية غير تلك الغاية .

في موضوع خطير كهذا لا يجوز أن نرد الانتكاس الخطير الذي أوجزنا وصفه آنفاً إلى « نسيان الأمة دينها وانصرافها عن عباداتها من صلاة وصوم وزكاة » .
فهذا كلام وعاظ مساجد يبيعون للناس كلاماً على قدر الرواتب التي يتقاضونها .

فليس صحيحاً أن الناس في عصرنا هذا ، أو حتى في عصور الظلام الماضية كانوا أبعد عن الدين وأقل حرصاً عليه مما يسمونه « السلف الصالح »
فليس هناك سلف صالح وخلف طالح ، إنها هي أجيال من البشر يتوالى بعضها في أثر بعض ، وفي كل جيل صالح وطالح ، وفي كل جيل ناس أهل دين وتقى ومكارم أخلاق ، وناس أهل فساد وإفساد وأهل فجور وعدوان ، وبين هذين الطرفين عرفنا اليوم - والأمس وقبل الأمس - جميع ألوان الطيف من فوق البنفسجي إلى تحت الأحمر . . وهناك دائماً طوائف تعتدى على الدين وتقارف الإثم جرأة على الله سبحانه أو طمعاً في عفوه وسبحانه غفور رءوف بعباده وهو غافر الذنب وقابل التوب .

* * *

وهذا حق حتى في أيام الرسول صلوات الله عليه . وأمانا سورة « براءة » وهي أيضاً سورة التوبة - وهي التاسعة في ترتيب المصحف ولكنها في الحقيقة من أواخر ما أنزل على رسول الله ﷺ من سور القرآن ، بل الغالب أنها آخر ما أنزل فقد نزلت على أثر غزوة تبوك ، وتبوك بدأت في أواخر رجب عام ٩ للهجرة وانتهت أوائل رمضان (أكتوبر - ديسمبر ٦٣٠ م) ولم تكن على الحقيقة غزوة بل محنة وامتحاناً للأمة ، ولهذا تسمى غزوة العُسرة والعُسرة نار يصهر معادن الناس فيبتين المعدن من الخبث ، ثم جاءت سورة براءة بنتيجة الامتحان فبدأت آياتها

تنزل على الرسول عقب العودة من الغزاة أى بعد الامتحان ، وظل المسلمون يترقبون نزول آياتها كما يترقب الطلاب نتيجة الامتحان وقلوبهم وجلة أشد الوجل وكل منهم يخشى أن تنزل آيات تكشف نفسه وماكان يخفيه عن الناس ، ولهذا قال حذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة إنها هى سورة العذاب . . وتسمى أيضاً الباحثة والفاحصه والفاضحة والمتكلة ، لأنها كانت على الحقيقة أشعة سينية نفذت فى كيان مجتمع المدينة أواخر أيام الرسول صلوات الله عليه وكشفت حقيقته كاملة .

ولهذا فهمى - بالنسبة لنا معاشر المؤرخين - سورة حاسمة ، فقد نزلت بعد فتح مكة وكان عامة المسلمين يرون أن فتح مكة هو غاية الإسلام القصوى وباع بعض المسلمين سلاحه وقال : قد انقطع الجهاد فجاءت هذه السورة تقول : لا ياأمة الإسلام لم ينقطع الجهاد . . بل بدأ جهاد النفس أولاً لإصلاحها وإعادةتها إلى جادة الإسلام وإلى طريقه وصراطه ، وجهاد الناس ومواصلة الفتوح حتى يكون الدين كله لله .

وقد قرأت هذه السورة مرة بعد أخرى ، وقرأت كل ما قبل فيها وعنها وأنشأت عليها دراسة أرجو أن يعيننى الله فتتشر على الناس ، ويذهب معظم المفسرين إلى أنها هتكت أسرار المنافقين فحسب ، ولكن الحقيقة أنها كشفت عن حال أمة الإسلام كلها فى نهاية المرحلة الأولى من مراحل بنائها : مرحلة الإنشاء والتكوين وبناء الأساس ، ليعرف المسلمون حقيقة أمرهم ويصححوا مسارهم قبل أن يدخلوا فى المرحلة الثانية ، مرحلة نشر الدعوة خارج جزيرة العرب ، ولهذا يروى الواقدى فى مغازيه أن رسول الله ﷺ عندما وصل تبوك أخذ حجراً ووضع على حدود الجزيرة وقال : هذا يمن وأشار إلى الجنوب ، وهذا شام وأشار

إلى الشئال ، ومعنى هذا : ذلك هو ماتبينوه إلى الآن ، وذاك ما عليكم الآن أن تفعلوه .

واقرا معى على سبيل المثال هذه الآيات من براءة : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنَآتِيَنَّاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ . (التوبة الآيات : ٧٥ - ٧٩) .

فهؤلاء قوم من المؤمنين الذين عاهدوا الله على الصلاح والتقوى والإنفاق مما يرزقهم الله فى سبيل الله فلما آتاهم الله ما وعدوا نقضوا وعدهم وبخلوا بهاهم غافلين عن أن الله سبحانه يعلم سرهم ونجواهم .

بل من أولئك المؤمنين من بلغ بهم الجحود أن ينالوا من الرسول بالستهم وفيهم تقول « براءة » :

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم والله ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يرضوه إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ . (التوبة الآيتان : ٦١ - ٦٢) .

بل كان من أولئك الناس قوم كانوا يخوضون ويلعبون : ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ . (التوبة الآيتان : ٦٥ - ٦٦) .

وهذا كله كان في حياة الرسول صلوات الله عليه .

نقول هذا لكيلا نجرى في طريق أولئك الذين يصورون الأجيال السابقة على أنها كانت كلها صالحة يسير أهلها على الجادة لا يكادون يقعون في خطأ فهذا - مرة أخرى - هو أسلوب الوعاظ ومن جرى مجراهم من أهل العلم في الأجيال السالفة ممن حولوا الدين والكلام في الدين إلى معلمات بل إلى معتقات والعلم لا يصلح أمره مع التعليب أو التعتيق لأنه لا بد أن يكون جديداً دائماً حياً أبداً نابعاً من الحياة وصاباً فيها .

والذي أريد أن أقوله هو أننا ينبغي أن نتحرر من تلك المأثورات التي توقف الذهن وتشل حركته وتجهد في ربط الفكر بالأمس فيظل نظر صاحب العلم ناظراً إلى الخلف مع أن العلم في صميمه كشف للمجهول ونظر دائم إلى الأمام . .

ومادامنا قد عدنا بالقافلة إلى أول الطريق لنسير من جديد فلنكن صادقين مع أنفسنا ومع من نكتب لهم لكي نفيدهم ويفيدوا وتتحول علوم الدين من علوم الماضي إلى علوم اليوم والغد وبعد الغد . .

وحسبنا إلى الآن خداع النفس وتزوير الماضي حسباناً منا أن ذلك يصلح الحاضر والمستقبل مع أننا نعلم علم يقين أنه لا يصلح مع التزوير شيء . .

وتلك هي عبرة سورة « براءة » . . . فقد كان الدين جديداً على الناس إذ ذاك وكذلك كانت غاياته فمضى الكثيرون منهم على سنن ماكانوا عليه حاسبين أن رسالة الإسلام تمت بفتح مكة وأنه لا تثريب عليهم أن يفعلوا مايشاءون ، وأن الأمة تستطيع المسير وفيها منافقون وكذابون وضعاف ومستهزئون فأتت السورة وكأنها سوط عذاب ينبه الغافل ويوقظ الجاهل وينذر السادر في غيه لتصحيح المسيرة ورد المسلمين إلى جادة الإسلام وصراطه المستقيم ، والإسلام هو دين الله القيم أى دينه القائم إلى آخر الزمان ، وأمة الإسلام هي حاملة

رسالته فينبغى أن تكون متيقظة لنفسها أبداً ، وإذا كانت سورة « براءة » قد نفعت أمة الإسلام أيام الرسول فهي تنفعها في كل عصر ومكان والناس هم الناس في كل عصر فيهم الصالح وغير الصالح . . . لا يختلف في ذلك منهم جيل عن جيل . . .

ولقد انتفعت أمة الإسلام من سورة « براءة » فاستقام أمرها وصلح أمر الكثيرين عليها ، ولكن كان لابد من زمان طويل حتى تستقيم البقية وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى زلزلت جماعة الإسلام زلزالاً شديداً لولا أن عصمها الله بنفر ممن وعث قلوبهم الإسلام وعياً تاماً فاستطاعت أن تحفظ الأمة من الضياع ومن أكبر الأدلة على ذلك خبر رواه أحمد بن حنبل عن أنس بن مالك وأورده الحافظ بن كثير في تفسيره وأبو بكر بن العربي في « العواصم من القواصم » قال أنس : « لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء قال وما نفضنا عن رسول الله الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا » قال أبو بكر بن العربي في « العواصم من القواصم » وهكذا رواه الترمذى : وابن ماجة وقال الترمذى هذا حديث صحيح غريب وقال ابن كثير وإسناده صحيح على شرط الصحيحين . . .

وإذن فلم يكن هناك زمان من تاريخنا الإسلامى كان كل الناس جميعاً فيه ملائكة أطهاراً ، وهذه سورة « براءة » تبين ذلك بأجلى بيان ، وعندى من التفاصيل وأقوال المؤرخين كثير جداً ولكننى التقيت هنا بكلام الله سبحانه لأنه قاطع مانع ولا يبارى فيه أحد . . .

لكن ما الذى نجا بأمة الإسلام وعصمها وردها إلى الجادة ؟ . . . الذى نجا بأمة الإسلام أن أولى الإيمان والعزم في عصر النبى ﷺ كانوا أضعاف أهل الضعف والنفاق والشك والريبة ، وكان إيمان الواحد منهم مع ذلك يهز الجبال وهم الذين وقفوا كالأطواد وعصموا الأمة من الضياع بإيمانهم واتحادهم وبما قبسوا

من سنة الرسول فقهروا أعداء الدين ، وقد ذكر الله سبحانه في سورة « براءة » نفسها أولئك المؤمنين الصادقين في قوله :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

(الآيتان : ٧١ - ٧٢)

وتزيد السورة ذلك بياناً فتقول في الآية ٨٨ : ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وضع ماشئت من الخطوط تحت . . لكن الرسول والذين معه . . الآية .

لأن هؤلاء هم الذين أنقذوا الإسلام .

وقد ذكر الله سبحانه هؤلاء المؤمنين الصادقين في الآية الأخيرة من سورة الفتح :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ . . فلم يكن كل من عاصر رسول الله ﷺ معه على النحو الذى تصفه الآية . وليس كل من صحب الرسول بصحابي ، فقد صحبه ناس كثيرون دون أن يكونوا « معه » ودون أن يكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم .

هؤلاء الذين عصموا الإسلام هم الذين زادنا الله بهم تعريفاً في قوله في سورة الأحزاب : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . (الأحزاب : الآية ٢٣) .

وسنعرف بعد قليل من هم أولئك الذين عاهدوا الله وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وواحد من هؤلاء لم يكتف بأن يكون صادقاً ، بل كان صديقاً ، وهو أبو بكر الذي أنقذ هذه الأمة بإيمانه وصدقته في الوفاء بالعهد وفهمه التام للإسلام فقد وقف وحده عندما ارتدت العرب . حتى عمر عجب من تشدد أبي بكر في موضوع الزكاة وقال لأبي بكر « علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » . فقال أبو بكر كلمته المشهورة : « والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لأقاتلنهم على منعها . إن الزكاة حق المال . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

ذلك أن أبا بكر بصدق إيمانه وبما قبس من شمائل الرسول أدرك أن الإيمان كتلة واحدة . فإذا نحن فرطنا في جزء اليوم فسنفطر في جزء آخر غداً وجزء ثالث بعد غد ، وهكذا إلى أن ينفطر العقد كله ويضيع الإسلام كله .

وقد فهم أبو بكر موضوع توقف الكثيرين من الأعراب على أنه نقض لعهد الأمة ، لأن الأمة قامت كما سنرى على عقد وعهد . وماداموا قد نقضوا جانباً من العهد فقد انتقض العهد كله ، وأصبحوا مرتدين عن الإسلام ، وماداموا قد ارتدوا فلا بد أن تعيدهم الأمة إلى رحابها بالقوة ، وقد نجح أبو بكر فأعاد المرتدين إلى رحاب الأمة بل فعل أكثر من ذلك : لقد أرسل هؤلاء المرتدين الذين عادوا إلى الإسلام ليفتحوا الدنيا باسم الإسلام ، وساروا وفتحوا .

لأن أبا بكر ومن « معه » كانوا على بينة من أمر الإسلام وما يصلح أمة الإسلام ، فامة الإسلام قامت على عهد وعقد ، ولا تزال هذه الأمة بخير ما استمسكت بذلك العهد .

فما هو هذا العهد ؟ .

لنرجع إلى الوراء قليلاً لنعرف كيف قامت أمة الإسلام .

* * *

منذ تلقى الرسول ﷺ أوليات آيات القرآن واستوثق من أنه نبي مرسل أدرك أنه لا بد لهذا الدين من أمة تتولى أمره ، فقد أمره الله في الآية ٦٧ من سورة المائدة بإبلاغ الرسالة وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

وفي الآية ٩٩ من نفس السورة نقرأ : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

وقد أدرك الرسول أن البلاغ لا يراد به مجرد إيصال الرسالة إلى الناس ، أى هو مجرد تبليغ ، فإن هذا التبليغ أو الإيصال لا يكلف جهداً أو مشقة إنما الذى يكلف الجهد والمشقة ويقيم أمر الدين هو البلاغ بعد التبليغ ، أى الوصول بالرسالة إلى غايتها بإنشاء أمة من المؤمنين الصادقين ، وهذه الأمة هى التى يتصور بها الدين حقيقة نافعة للبشر ، وهل يمكن أن يكون هناك دين له فاعلية دون أن يكون هناك مؤمنون به ؟ إذن فلا بد من إنشاء أمة الإسلام .

وهذه الأمة لا ينبغى أن تكون كياناً سياسياً يخدم غايات سياسية ، بل لا بد أن تكون بناء دينياً اجتماعياً خلقياً يخدم غايات إنسانية تابعة من هذا الدين القيم

« القائم الدائم » لتكون هي آخر أمة قيمة تدوم دوام الدهر وتتسع لبنى آدم أجمعين ، وتلك كانت الغاية التي أنفق محمد رسول الله ثلاث عشرة سنة من عمره ليحققها في مكة .

ولو أن محمداً اكتفى كغيره من أنبياء الله ورسله بتبليغ الرسالة لما كانت به حاجة إلى جهد ولا نصب ، لأنه خلال العام الأول من الرسالة ، وقبل دخوله دار الأرقم كان قد أبلغ الرسالة ، وجمع حوله طائفة طيبة من الأتباع لم يوفق إلى مثلها نبي مرسل قبله ، فعيى مضى إلى ربه مخلفاً وراءه حفنة من الحوارين لا يبلغون نصف الجماعة التي كسبها محمد للإسلام قبل أن يدخل دار الأرقم ويدعو فيها ، وموسى لم يصبر حتى يكسب فرعون وآله لرسالته ، بل اكتفى بقومه من بنى إسرائيل ومضى خارجاً من مصر ، وإبراهيم لم يكسب لدعوته إلا فئة قليلة من الناس ، ومضى إلى ربه فترقت من بعده بُدْداً غير هذا كله أو وراء هذا كله كان مطلب محمد لم يكتف بالتبليغ بل أصر على البلاغ .

والبلاغ عنده كان تحويل قريش كلها إلى جماعة الإسلام وتوجيه الجماعة القرشية المسلمة إلى كسب العرب جميعاً . وكان رسول الله ﷺ يرى في قريش من المواهب والملكات والخصائص ماهو قمين بأن يعينه على البلاغ الأكبر ، وهو إدخال البشر جميعاً في دين الله .

ولكن الغالبية الكبرى من القرشيين لم تفتن إلى الغاية الكبرى التي كان محمد يدعوها إليها . وأبو جهل - ممثل المجتمع العربى قبل الإسلام - لم يستطع عمره كله أن يرى في محمد إلا رجلاً من بنى هاشم بن عبد المطلب يريد أن يجدد رياسة بيت عبد المطلب ، ويتنزع القيادة والرياسة ممن غصبوها بقوة المال والقدرة العسكرية من بنى أمية بن عبد شمس وبنى مخزوم بن يقظة وبنى أسد بن عبد العزى بن قصي وبنى سهم بن جمح وبنى عمرو بن هصيص وبنى تيم بن مرة . كان أبو جهل يرى نفسه سيد هذه القيادة الملكية القائمة على أموال التجارة الملكية

من ناحية والقوة العسكرية التى تجلّت فى الدور الأخير من حرب الفجار التى انتصرت فيها قريش على قيس عيلان كلها بقيادة العقابس والأعباس وهم عتره عبد شمس بن عبد مناف الذين فاقوا بنى عمومتهم أبناء عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف .

وهذا الحلف الضخم من الأغنياء الأقوياء ، هو الذى وقف فى سبيل الدعوة وانتهى فى السنة العاشرة للهجرة إلى إيقاف تقدم الدعوة فى مكة توقفاً تاماً .

وكانت غاية محمد الكبرى هى تحويل هذا الحلف الضخم إلى قاعدة للإسلام وكان هذا مستحيلاً ، لأن قادة الحلف أنفسهم لم يروا قط الغايات السامية البعيدة التى تنتظرهم من وراء الاستجابة للدعوة ، فوقفوا حيالها جامدين ، وهذا بالضبط هو ما عبرت عنه الآية ٢٣ من سورة الجاثية أدق وأصدق تعبير حيث قال رب العزة : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ولكن لا سبيل إلى الاكتفاء بالتبليغ دون البلاغ ، وبعد محاولة غير موفقة مع سادة الطائفة بعد اتصالات ببعض الأحلاف القبلية الأخرى . كان اللقاء مع رجال يثرب ، وإن الإنسان ليعجب من دأب الرسول على الوصول إلى الغاية العليا .

كانت السنوات الثلاث التى أعقبت موت عبد المطلب وخديجة سنوات جد قاسية على رسول الله ﷺ ومع ذلك فما قعد عن الدعوة والسعى إلى إنشاء الأمة يوماً ، ماسمع بقوم وافدين على مكة إلا أسرع إليهم ومأشده ما كان يلتقى من معظم أولئك الناس حتى إن بعضهم حثا التراب فى وجهه ، ومع ذلك فلم تضعف له عزيمة ، وكان لابد أن يوفق . ولم يكن اللقاء مع أهل يثرب وتوقيفه

معهم مصادفة ولا ضربة حظ فمثل هذا الرسول المؤمن الدؤوب لابد أن يصل إلى ما يريد .

* * *

وفي سنة ٦١١ م (٢ قبل الهجرة) كانت بيعة العقبة الأولى وفي عام ٦١٢ م . (خلال عام ١ قبل الهجرة) كانت بيعة العقبة الثانية ، والعقبة الثانية هي بداية قيام أمة الإسلام ، ودع عنك ماتذكرة الروايات من أن العباس بن عبد المطلب كان هو الذي خرج مع محمد للقاء وفد أهل يثرب ممن اجتذبتهم الدعوة المحمدية عندما تحدث إليهم محمد في العقبة الأولى . فما كان العباس - وهو إذ ذاك وثني مشرك - بالذي يتحدث باسم محمد ، ولا يستقيم بحال أن يقال إن العباس تحدث باسم بنى هاشم قوم محمد ، فما كانت دعوة الإسلام عصبية قبلية حتى يأذن محمد في أن يتحدث عنه رجل من أهل عصبيته ، ثم إن محمداً كان أعلى مقاماً ومكانة في بنى هاشم من العباس بن عبد المطلب ، فكيف يتحدث الأدنى باسم الأعلى ؟ وإذا كان ولا بد من رجل أو ناس من بنى هاشم فأين منها حمزة ، وهو كان أكبر مقاماً من العباس ، وعندما أسلم حمزة ارتجت قريش كلها لإسلامه . . . هذه إضافات لحقت السيرة أيام بنى العباس ، وهي كانت بعض وسائلهم في إضفاء الشريعة على خلافتهم .

والأقرب إلى العقل أن يتحدث محمد رسول الله عن محمد رسول الله ، وهذا هو الذي حدث ، ويستوقف نظرنا أن محمداً ، وهو الباحث عن قوم يقيم فيهم وبهم الدعوة ، يتحدث إلى أولئك الناس حديث السيد الذي يعرف ما يريد ، فهو لا يطلب الحماية أو المأوى لأنها هم أهل يثرب أنفسهم هم الذين سمعوا إلى

قول الرسول ﷺ وأطاعوه ، وهذا هو البراء بن معرور يخاطب الرسول -
لا العباس ويقول : تكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ؟ .

ومن يقرأ هذا الكلام لا يحس أنه أمام رجل يبحث عن حماية إنما يحس أنه
أمام رجل يخاطب مؤمنين به ويسألهم إن كانوا قادرين على القيام بأمر دعوته ،
أى أنه منذ اللحظة الأولى كان يريد أن يعقد عهداً موثقاً (بيعة) مع قوم
لا يكتفون بالدخول في الإسلام ، بل يعاهدون صاحب الرسالة على أن يؤكدوا
ما التزموا به في العقبة الأولى من الإيمان بالله الواحد « على ألا نشرك بالله شيئاً
ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا ،
فإن وفيتم فلکم الجنة » . ويتعهدوا إلى جانب ذلك بأن يقوموا بحماية هذه
الدعوة . وعندما نسمع رسول الله يقول : « على أن تمنعوني مما تمنعون منه
نساءكم وأبنائكم » فإننا ينبغي أن نفهم من ذلك أن المراد بالمنعة هنا هو الإسلام
نفسه . لأن محمداً لم يكن يبحث عن قوم يعيش آمناً في كنفهم في سكون . وإذا
كان مجرد الأمن هو مطلبه فقيم الهجرة وفيهم طلب المنعة ، وفريش كلها ترجموه من
أكثر من عشر سنوات أن يكف عن الإصرار على إدخالهم في الإسلام ويدعوه
آمناً ماشاء . .

وإذا كان هؤلاء القوم أتوا ليؤكدوا لمحمد أن الكثيرين من قومهم مالوا إلى
دعوته ، فلماذا لم يذهب معهم دون عقد أو عهد ؟ ولم يكن في تقاليد العرب في
الجاهلية ما يتطلب عهداً أو عهداً لكي يجبر قوم رجلاً . كان يكفي أن يقول واحد
من القوم إنه يجبره . بل كان يكفي أن يمس الرجل طنب الخيمة حتى يحق له
الجوار ، ويكون المحير ملزماً في هذه الحالة بمنعه مما يمنع منه أهل بيته .

وإذن فما الذي كان الرسول ﷺ يسعى إليه في هذا اللقاء ؟ الذي كان يريده
هو عقد عهد وميثاق بين الدعوة التي يحملها وأولئك الذين يعرضون أن يدخلوا
فيها ويقوموا بحمايتها ، أى الذين يتصدون لكي يكونوا أمنها وقاعدتها .

واستمع إلى البراء بن معرور يتحدث باسم أهل يثرب بعد أن تلا محمد القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام « نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا يعني نساءنا وأهلنا - وكانت تلك عبارة تقليدية في مثل هذه العقود ثم يقول البراء بن معرور : فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر » .

وهذا ما كان محمد رسول الله ﷺ يطلبه : عقد واتفاق أو عهد أساسي بين الإسلام وبين من يريدون أن يكونوا أمة الإسلام . كان يطلب عهداً وميثاقاً شرعياً بين الإسلام ورجال أمة الإسلام ، بعبارة أخرى : كان لا يريد أن ينتقل إلى 'ولئك الناس إلا على شريعة أى دستور متفق عليه من الجانبين .

البيعة عقيدة والتزام

أما بعد ، فإنى وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسن النبى ﷺ ، وعلمنا فعملنا ، واعلموا أيها الناس أن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وأن أقواكم عندى الضعيف حتى أخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى أخذ منه الحق ، أيها الناس ، إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أنا أحسنت فأعينونى ، وإن أنا زغت فقومونى ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

(كتاب الأصول لأبى عبيد القاسم بن سلام) .

وقفنا فى حديثنا السابق عند بيعتى العقبة الأولى والثانية ، وقلنا إن بيعة العقبة الأولى كانت ارتباطاً بين محمد ﷺ ونفر من أهل المدينة على أساس العقيدة فحسب ، وخبرها كما حكاه ابن إسحاق رواية عن رجل ممن شهدوها وهو عبادة ابن الصامت : « بايعنا رسول الله ﷺ ليلة الأولى على ألا نشرك بالله شيئاً . ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل ، ولا نأتى ببهتان نفتره من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلکم الجنة ، وإن غشيتم (نقضتم) من ذلك شيئاً فأخذتم بحده فى الدنيا ، فهى كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمرکم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب وإن شاء غفر .

فالببيعة الأولى كانت على التوحيد والخط الإسلامى الأخلاقى ولا زيادة ، ولا بأس بذلك ، فهذا - فى النهاية - هو لباب الإسلام ، ثم إنها بيعة فعلاً ، أى صفة : أخذ وعطاء ، هم يلتزمون بمبادئ الإسلام ويأخذون فى سبيل ذلك

سعادة الدنيا بالسير على خط خلق رفيع ، ثم الجزء الحق من الله سبحانه وتعالى ، وهو سعادة الآخرة لمن التزم بالميثاق .

ثم كانت العقبة الثانية بعد ذلك بعام ، وربما أقل ، وفيها يأخذ الميثاق صورة جديدة تؤيد صورة ميثاق العقبة الأولى من ناحية ، وتزيد عليها بعد ذلك ، فمحمد سترك بلده وينتقل إلى بلد آخر بين قوم جدد معظمهم لا يعرفونه ، وإذن فلا بد أن يكون في الاتفاق ما يضمن له الأمن والسلامة ، ويفتح أمامه الأبواب لنشر الإسلام ، وقد أتينا بنص الاتفاق فيما قلنا آنفاً ، بنضيف هنا خبراً يؤكد معنى تلك البيعة الثانية ، فهي ليست ميثاقاً على الالتزام بخط أخلاقي فحسب ، بل فيها اتفاق تستطيع أن تسميه سياسياً ، فقد قام أبو الهيثم بن التيهان وهو كان ثاني المتحدثين باسم القوم في هذه المراحل الأولى - فقال : إن بيننا وبين « الرجال » حباً ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسلم من سالمتم . . وابن إسحاق ومن تابعه - ابن هشام والسهيلي شارح سيرة ابن هشام في كتابه « الروض الأنف » بضم الهمزة والنون ومعناها الروض الينع ، والزرقاني صاحب شرح المواهب اللونية للقسطلاني (أى أنه شرح سيرة ابن هشام) - هؤلاء جميعاً يقولون إن المراد « بالرجال » هنا اليهود ، أى يهود المدينة ، وهو تكلف لا معنى له ، لأن المراد - إذا أخذنا الكلام مأخذه السهل المنطقي : أننا يارسل الله سندخل معك الآن في اتفاق شامل يلغى اتفاقاتنا مع غيرنا من الناس ، فهل نحن إذا فعلنا ذلك وانتصرت بنا هل تركنا وتعود إلى قومك ؟ وهنا يؤكد الرسول التزامه من ناحيته بعبارة تقليدية كانت العرب تقولها في مثل هذه الاتفاقات ، ومعناها : إن دمي بهذا الاتفاق دمكم ، لقد أصبحت منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم ، ويوبتكم

هى بيوتى ، فإذا هدمتم خيامكم وارتحلتم إلى موضع آخر سرت معكم (الهدم الهدم) أى أن وطنكم أصبح وطنى ، فهو ارتباط دم وارتباط حرب وإسلام وارتباط وطن .

وبيعة العقبة الثانية على هذا ميثاق كامل : فيه العقيدة ، وفيه التزام من الطرفين إلى آخر المذى . كلا الطرفين يأخذ ويعطى ، وليس هناك عطاء من جانب واحد ، أو أخذ من جانب واحد ، فإن ذلك يجافى طبيعة تكوين أمة الإسلام .

هذا الكلام الذى نقوله ليس مجرد تحقيق علمى ، بل نحن ندخل هنا - منذ البداية - فى صميم التكوين السياسى لأمة الإسلام ، فهو تكوين يقوم على بيعة أو ميثاق أو تعاهد ، والبيعات والمواثيق والصفقات والعهود والمعاهدات كلها اتفاقات تقوم على التراضى وتبادل المنافع المتعادلة من الطرفين ، فإذا كان هناك إجحاف بواحد من الطرفين ، أو إذا كان هناك عطاء من جانب واحد أو أخذ من جانب واحد لم يصح إسلامياً أو عملياً ، وهنا نضع يدنا على السبب الرئيسى فى فشل دولة بنى أمية ، فقد قامت على أخذ من جانب واحد : معاوية وأله أخذوا طاعة الأمة وأموالها ولم يعطوا شيئاً ، فالببيعة بطبيعتها غير إسلامية ، وإذن فهى باطلة شرعاً أولاً ثم عملياً بعد ذلك . وكذلك القول فى دولة بنى العباس ، فقد زعموا أنهم أخذوا الخلافة إرثاً عن رسول الله ﷺ ، ورسول الله لم يملك أمة الإسلام حتى يرثها عنه بنو العباس أو غيرهم ، فالببيعة باطلة أساساً : إسلامياً أولاً ، ثم عملياً بعد ذلك .

ونحن عندما نقول إن محمداً صلوات الله عليه لم يملك أمة الإسلام نعننى مانقول . فإن أمة الإسلام فى الحقيقة هى أمة الله سبحانه ، والميثاق فيها ليس بيننا وبين محمد ، بل بيننا وبين الله سبحانه ، والتزامنا فى هذا الاتفاق هو نفس التزام محمد فيه ، فنحن لسنا أتباعه إلا على المجاز ، لأنه هو الذى حل إلينا

الرسالة أو على المحبة ، لأننا نحبه فتتابعه عن حب وثقة ، ولهذا فإننا نحن معاشر المسلمين لا نسمى أنفسنا قط بالمحمديين ، ونكره أن يقال عنا إننا Mohammedans كما يقولون عن أنفسهم إنهم Christians مثلاً أى اتباع خيستوس أى المسيح ومحقق البشارة ، إنما نحن نقول إسلامياً : إننا نحن ومحمد أمة الله وأتباع الحق ، ومحمد فى ذلك هو نبينا ورسول الله فينا وحامل هداه إلينا ومبلغ كلمته وإمامنا ، وهو الذى رسم لنا الطريق القويم فى العبادات وفى تطبيق الشريعة وفى مكارم الأخلاق ، ومرة أخرى نتلو الآيات الفاصلة من سورة الأحزاب وهى الثالثة والثلاثون من سور القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَذَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ . (الآيات ٤٥ - ٤٧) ولنلاحظ أن هنا أيضاً تجد قاعدة الأخذ والعطاء ، فنحن المؤمنين نتبع النبى الشاهد المبشر النذير الداعى إلى الله بإذنه السراج المنير ، وفى مقابل هذا يبشرنا البشير بأن لنا من الله فضلاً كبيراً .

ونحب أن نشير هنا إلى عبارة « إن بيننا وبين الرجال حبلاً » فالحبال هنا جمع حبل ، ويراد فى مصطلح العرب فى ذلك الحين العقد والعهد والميثاق فكانوا ومازالوا فى جزيرة العرب يقولون : إن بيننا وبين أولئك القوم حبلاً أو حبلاً ، ويراد به الاتفاق أو الميثاق ، والذى أراده أبو الهيثم بن التيهان ، هو أننا بدخولنا فى الإسلام وبعقدنا الميثاق مع الله سبحانه وتعالى ومعك ، نقطع الموائيق والاتفاقات التى بين غيرنا من الرجال - من يهود أو غير يهود - ونحب أن نظمئن إلى أننا إذا فعلنا ذلك وتم لك النصر نتيجة لذلك . أنك لا تتركنا وتعود إلى قومك ، فأكد لهم الرسول التزامه بالعقد والميثاق بأجلى وأدق صورة : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحازب من حاربتم وأسلم من سلمتم ، وهنا أشير إلى الآية ١٠٣ من سورة آل عمران ، وهى الثالثة من سور

القرآن الكريم بعد الفاتحة والبقرة : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

فهذه الآية تؤكد للمعنى الذى نستخلصه من كلام أبى الهيثم بن التيهان ، ورد الرسول عليه ، فإن أبا الهيثم ومن معه ممن بايعوا الرسول قطعوا بذلك الحبال التى بينهم وبين غيرهم ، واعتصموا بحبل الله ، أى دخلوا فى عهد الله وميثاقه ، والله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ، أى يتحدوا فى ميثاق الإسلام ، ويذكرهم بأن تركهم الحبال التى كانت بينهم وبين الناس واعتصامهم بحبل الله نعمة كبرى من الله ، فقد ألف بين قلوبهم فى كنف أمة الإسلام ، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً . وكانوا قبل ذلك - ورغم الحبال التى كانت تربطهم بالناس أى بالرجال كما قال أبو الهيثم - على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله بعهد وميثاقه من التردى فيها . .

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام فكرة العهد والميثاق والأخذ والعطاء التى هى أساس الدخول فى دين الله وأمته ، فقد اعتصم المؤمنون بحبل الله وتركوا حبال الناس فتآلفت قلوبهم وأصبحوا إخواناً ، وتلك هى الرابطة الأساسية بين أفراد أمة الإسلام . . أنهم إخوان متآلفة قلوبهم بنعمة الله ، وهذا الاعتصام بحبل الله على أساس التآلف والأخوة هو سبيل النجاة الوحيدة أمام أمة الإسلام ، وبدون ذلك يكون المسلمون على شفا حفرة من النار .

اذكر هذه الآية واستعرض فى ذهنك تاريخ أمة الإسلام وما جرى عليها من المصائب ، تجد أن سببها أنهم لم يعتصموا بحبل الله جميعاً وتفرقوا ، فتردوا فى حفرة النار التى لم ينقذهم منها فى فجر الإسلام إلا اعتصامهم بحبل الله ، فالمعنى هنا سياسى وأخلاقي ودينى ، وقوة الإسلام ترجع إلى أن أخلاقياته من

حب وتآلف وأخوة وصدق هي أسس وقواعد سياسية كذلك ، فالخط الأخلاقي هو خط سياسي في نفس السوقت ، والسياسة في الإسلام هي الأخلاق ، ولا يمكن أن تفلح أمة الإسلام سياسياً إذا لم تكن صالحة أخلاقياً . .

وهنا نلاحظ أن كل المفكرين السياسيين المسلمين - وكلهم فقهاء - قد غابت عنهم هذه الحقيقة ، فحسبوا أن السياسة شيء والإسلام وعقيدته وشريعته شيء آخر ، فالسياسة عند ابن خلدون قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها ، كما كان ذلك للفرس وغيرهم ، ثم يفرق ابن خلدون بين السياسة العقلية المفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها ، والسياسة الشرعية وهي مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها ، وكانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وما يسميه ابن خلدون سياسة دينية هو ما يسميه ابن تيمية سياسة شرعية ، وهي عندهما معا « حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة . وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء » ثم يدور ابن خلدون دورة طويلة ثم يقول : « والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها (مرتبطة) بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به » والدين عنده هو الأحكام الشرعية ، أى الأحكام التي يصدرها الفقهاء قضاة كانوا أو أهل مشاورة وفتوى . .

وما سكنت عنه ابن خلدون ، ذكاء منه وحرصاً ، يصرح به تقي الدين أحمد ابن تيمية في كتاب « السياسة الشرعية » في إصلاح الراعى والرعية » فهو يقول في فاتحة الكتاب « أما بعد . . فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الإلهية والآيات النبوية لا يستغنى عنها الراعى والرعية ، اقتضاها من أوجب الله نصحه من ولاة الأمور ، كما قال النبي ﷺ فيما ثبت عنه من غير وجه : « إن الله

يرضى لكم ثلاثة : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » ، وواضح أن هذا الحديث وكل الأحاديث التي تنص على وجوب طاعة الحكام في كل ما يأمرون به إلا ما يتضمن معصية الله سبحانه ، ينبغي أن تؤخذ بحذر شديد ، لأنها ترمى إلى إخضاع الناس للحاكم مهما بلغ ظلمه ، ما لم يكن كافراً أو آمراً بكفر أو معصية واضحة لأمر من أوامر الله تعالى ونواهيه ، وبديهي أنه لم يوجد قط حاكم يأمر الناس صراحة بمعصية الله . إنه هو يعصى الله ويقتل ويغتال خصومه وينهب أموال الرعية ، وهذا ظلم ، ولكنه ليس كفراً ، وهي معاص منه في حق الله ، وحسابه على الله لا على الناس ، وكل ما يتعين على الفقهاء وأهل الشرع هو النصيحة ، والنصيحة لا تضر الحاكم في شيء ما لم تتحول إلى مطلب ، وهذا هو الذي جعل كل كتابات المسلمين في السياسة كتب مواعظ ونصائح للحكام بالعدل وأوامر للناس بالطاعة . وكتاب السياسة الشرعية لابن تيمية إنما هو كتاب في إصلاح الرعية ، أما إصلاح الراعي فخارج عن ولاية الفقيه .

والوحيدون الذين حولوا النصيحة إلى مطلب ، والمطلب إلى أمر للحاكم ، واعتبروا عدم إطاعة الحاكم لأمر الرعية خروجاً عن الدين ، واعتبروا هذا الخروج كفراً هم تلك الطائفة المظلومة التي نسميها الخوارج ، والخوارج في النهاية هم الذين تمسكوا بالخط الإسلامي القديم وأنكروا « الخلافة الملك » وقالوا إنها ليست إسلامية ، وإن الحكم بالقوة والغصب ردة بالإسلام إلى نظم الجاهلية . وتمسكوا بالشورى واحترموا قيمة الإنسان ، وقالوا : لا حكم إلا لله ، واختاروا واحداً من عامتهم وهو عبد الله بن وهب الراسي وبايعوه بالإمامة على الشورى والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وأرادوا إعادة الأمة كلها إلى الجادة كما فعل أبو بكر مع أهل الردة ، ولكن الخلفاء الملوك حاربوهم باسم الدين وسموهم الخوارج . . وهم في الحقيقة الدواخل ، ووقفت الأمة كلها تنفر حتى انكسرت

شؤكتهم ولم تبق منهم إلا شراذم مفرقين في أطراف البلاد : في الغرب الأوسط وفي جبال عمان .

إذا نظرنا في بيعة العقبة الأولى وجدنا أنها مجرد الدخول في الإسلام ، والنطق بالشهادتين واجتناب المحرمات ، أى أنها كانت أخذاً بدون عطاء ، وقد أجاد الرسول ذلك لأن الأمة لم تكن قد قامت بعد .

أما بيعة العقبة الثانية فكانت الحجر الأول في بناء الأمة ، أى أن الدخول في تلك البيعة كان يستتبع الدخول في الأمة ، والأمة كيان سياسى يعطى الداخلين فيه ميزات . والأمة لا بد أن تكون في نفس الوقت قوة أو وحدة سياسية لها قوتها العسكرية الذاتية ، إلى جانب قوتها المعنوية ، وهذا كله لا بد أن يكون له مقابل ، والأخذ لا بد أن يقترن بالعطاء ، هذا هو منطق الحياة وهو أيضاً منطق الحياة الصحيحة ، لأن الإسلام هو الحياة الصحيحة أو الحياة الصحية كما نقول ، ولهذا فقد كان لا بد من التزامات أخرى غير مجرد النطق بالشهادتين . هذه الالتزامات هى التى عبر عنها البراء بن عازب بقوله « نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع أزرنا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر أى أن الدخول في الإسلام أصبح في نفس الوقت الدخول في الأمة ، والأمة لا بد أن تكون قوة والقوة هى المسلمون ، أى أن عضو الأمة لا بد أن يكون مستعداً للزيادة عنها بهاله ودمه . .

في مقابل ذلك التزم الرسول - وكان ملتزماً به دون حاجة إلى القول - بأن نصل تماماً عن قومه ، وأن يظل في أمته ومعها ، وأن يكون من الأمة ، والأمة

منه ، ولكن أبا الهيثم بن التيهان (بفتح التاء وتشديدها وكسر الياء وتشديدها) أراد أن يسمع ذلك بأذنيه ، لكي يطمئن قلبه ، وطمأنه الرسول بأكثر مما طلب ، وبذلك يصح عقد البيعة من الطرفين ، وعلى هذا الأساس يكون الحجر الأول من أحجار إقامة بناء أمة الإسلام قد وضع وضعاً صحيحاً سليماً . .

ولم تكد هذه الخطوة الأولى تتم حتى خطا الرسول ﷺ الخطوة الثانية ، لقد قامت الأمة بهذا الميثاق الأول ، نعم إن عدد أفرادها الذين بايعوا الرسول كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين ، ولكن هذا العدد هنا لا يهم ، لأن وراء كل واحد من هؤلاء رجالاً كثيرين ، ثم إننا سنرى أن كل واحد من هؤلاء سيتحول بمجرد دخوله في الإسلام وأمته من رجل جاهل مج هول إلى صانع من صناعات التاريخ ، لأن الإسلام يصنع الذين يدخلون فيه عن إيمان وصدق صنعا جديداً . . والقضية هنا متبادلة : الإسلام يصنع رجاله ورجاله يصنعون أمته . . وأمته إذا بنيت بناء سليماً . تصنع رجالها ، فهي أمة متجددة أو ينبغي أن تكون متجددة شريفة . . أن تكون سليمة التأسيس وأطرافها كلهم عارفين بهالمهم وماعليهم ، أما أن يحسب الإنسان منا أن مجرد النطق بالشهادتين والقيام بعبادات الإسلام مستحقاً لكل ثواب المسلم العالم العامل المشارك في بناء أمته وقوتها فكلام لا يستقيم .

وغريب من بعض الناس أن يتأملوا أحوال أمة الإسلام ثم يتساءلون : كيف تكون خير أمة أخرجت للناس وهذا حالها ؟ وهؤلاء نقول : اقرأوا الآية كاملة أيها الناس ، وانظروا إلى ما قبلها وما بعدها ، ليصح فهمكم لها ، فإن الآية تقول ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . (آل عمران : الآية ١١٠) بهذا تكتمل الآية ويتم المعنى فهنا أخذ : وهو أن أمة الإسلام تكون خير أمة للناس ، وهنا عطاء : وهو أن يأمر المؤمنون بالمعروف وينهون عن المنكر فإذا لم يأمر المؤمنون بالمعروف أى

بالمعارف عليه أى بما تعهدوا عليه ، وإذا لم ينضوا من جماعتهم ما ينكره الخلق الإسلامى ، فلا يمكن أن تكون أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس .

واقرا بقية الآية والتي بعدها ففى ذلك تمام المعنى وهو :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ، لَنَ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْاِدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ .

واسأل نفسك معى : ألسنا نحن أيضاً أهل الكتاب ؟ هذا حق ولكننا نسمى أنفسنا أهل الكتاب بأداة التعريف وهو القرآن ، ولو أننا آمنّا كما ينبغى أن يكون الإيمان لكان خيراً لنا ، ومنا مؤمنون ولكننا تحولنا خلال عصور التدهور والركود ، فصار أكثرنا فاسقين ، ولذلك لا نبلغ مع أعدائنا إلا أذى ، وكنا إذا حاربنا ولينا مدبرين .

إذن فإننا وصلنا إلى الحالة التى لا تعجبنا ولم نعد خير أمة أخرجت للناس ، لأننا لم نف بالميثاق ، لأننا لم نكن أهلاً لمسئولية العهد ، لأننا تصورنا الإسلام أخذاً بدون عطاء .

ونعود إلى النص كما يرويه ابن إسحاق برواية ابن هشام قال كعب بن مالك . وقد قال رسول الله ﷺ : « اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس » . والنقيب كما فى لسان العرب هو عريف القوم والجمع نقباء والنقيب العريف وهو شاهد القوم وضمينهم . أى أن رسول الله طلب إليهم أن ينتخبوا من بينهم اثنى عشر مندوباً أو نائباً كما نقول لكى يتحدثوا باسم جماعتهم لكى يشاورهم الرسول فى الأمر . .

(هى الشورى إذن) ...

وفيم كان رسول الله ﷺ يحتاج هؤلاء النقباء أو العرفاء أو النواب ؟ لقد وثق فيه القوم وبإيعونه وأعطوه صفحة يمينهم بل قال البراء بن معرور : إنهم مستعدون لأن يقوموا بكل ما يطلب منهم . .

وقد كان رسول الله ﷺ يستطيع أن يختار من يريد ليستشيره فيما يرى ، كما سيفعل حكام المسلمين فيما بعد ، فيكون المستشارون مرايا يرى الحاكم فيهم نفسه ، يشيرون عليه بما في نفسه استبلاغاً في الذلة والطاعة .

ولكن الرسول طلب إليهم أن يختاروا من بينهم من يمثلهم ويتحدث باسمهم ، لأن الإسلام كما قلنا يقوم على التراضى والاتفاق والتشاور في كل مايتعلق بأمور المعاش ، وسنرى فيما سينقص من قيام أمة المدينة أن هؤلاء النقباء كانوا نواباً بالفعل عن قومهم وعن الإسلام كله ، حقاً لم يكونوا بأهل انقياد وتسليم ، بل أهل رأى ومشورة ، وقد كان لهم النصيب الأول في شئون أمة المدينة وفي أكثر من موقف كان رأى رجال من أهل الشورى هو الذى قاد المسلمين إلى الطريق السليم .

وكان هذا يعجب محمداً ويسره ، لأنه كان يعلم أن الناس أعرف بأمور دنياهم ، وقد قالها مرة ، وكما أن الإسلام في أساسه أخذ وعطاء في العمل ، فهو أخذ وعطاء في الرأى ، ولا يستقيم أمر أمة الإسلام إلا بأهل الشورى يختارهم الناس اختياراً حراً . كما حدث أيام الرسول ﷺ .

وإذن فالشورى بصورتها التى قدرها الرسول بها ونفذها أساس من أسس بناء أمة الإسلام ، وبدونها لا يكون تسيير أمور الجماعة حواراً وتبادل آراء ، بل يكون إملاء ، وهنا لا تسيير أمة الإسلام في طريقها الصحيح ، بل تنتكس وترتد كسروية أو قيصرية ، وتتوقف رسالة الإسلام في أمة الإسلام ، ويكون الانتكاس الخطير الذى وصفناه في مقالنا الأول . . ونحن نقرأ في سورة آل عمران

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنَتَّ لَّهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ . فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ . (الآية ١٥٩) .

ولفظ شاوورهم هنا فعل أمر مثله في ذلك مثل : أقم الصلاة ، فلماذا أهمل الفقهاء الوقوف عند ذلك الأمر الصريح ؟ لماذا لم يقتنوه ويضعوا النظام لتطبيقه ؟ ولماذا طبق المسلمون الشورى أيام الرسول ؟

لأنه كان رحيم القلب لين الطبع يصفح ويعفو ويستغفر للناس ، ولماذا لم يطبق معاوية بن أبي سفيان ومن بعده الشورى ؟

لأنه كان فظاً غليظ القلب تهون عليه الدماء في سبيل السلطان ، ولهذا خافه الفقهاء وأهل الرأي على أنفسهم . .

وماكان ينبغى أن يخافوا لأن الموت في سبيل الحق أساس من أسس قوة أمة المدينة . .

ولكن هذا هو الذى حدث .

ونحن لا نقوم بهذه الدراسة لنصلح الماضى ، فإن الماضى لا يصلح ، ولكننا نقوم بها اليوم والغد ومابقى من عمر أمة الإسلام أكثر مما فات بكثير . .

وفى القرآن سورة كاملة أسماها الشورى ، وهى الثانية والأربعون من سور القرآن ، وفى الآية ٣٨ منها تقرأ فى خصائص المؤمنين أعضاء أمة الإسلام :

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

وإذن فرسول الله عندما طلب من وفد المدينة أن يختاروا من بين أنفسهم اثنى عشر نقيباً كان يقرر قاعدة أساسية من قواعد بناء أمة الإسلام . .

القرآن إلهى بمصدره إنسانى بغاياته

إن كل آية من آيات القرآن ، وكل حديث من أحاديث الرسول ، يقصد إلى خير الإنسان على إطلاق دون تفضيل إنسان على إنسان إلا بميزان الأخلاق الإسلامية (التقى) ، ومايستطيع الإنسان تقديمه من الخير لأمة الإسلام (البر) ، وتلك هى القاعدة الصلبة التى أقام عليها الرسول أمة الإسلام .

وقفت فى حديثى السابق عند الشورى التى رأى الرسول ﷺ أن يجعلها قاعدة من قواعد بناء أمة الإسلام من أول الأمر ، فما كاد يعقد العهد والميثاق مع أهل العقبة الثانية على أساس الأخذ والعطاء حتى قرر مبدأ الشورى ، فطلب إلى الشرييين أن يختاروا من بين أنفسهم اثنى عشر نقيباً أى ممثلاً لهم ، لكى يشاورهم فى الامر كما امر الله سبحانه وتعالى أمراً صريحاً جازماً لا يمكن التحلل منه فى الآية (١٥٩) من سورة آل عمران .

ورسول الله عندما قرر ذلك كان يعرف أنه بذلك يضع قاعدة أساسية من قواعد بناء أمة الإسلام ، لأن أمة الإسلام هى أمة الناس جميعاً وليست أمة جماعة من البشر دون جماعة والدين كله جاء لخير الناس ، والإنسان إطلاقاً هو محور الدين وجماعته ، والقرآن إلهى بمصدره ، ولكنه إنسانى بغاياته ، فليست فى القرآن آية واحدة لا يراد بها خير الإنسان والناس ، فالله سبحانه غنى عن

العالمين ، وإذا كان الدين عقيدة وشريعة فإن الإيمان بالعقيدة والتزامها خير كل الخير للإنسان ، والشريعة بقسميها - العبادات والمعاملات - هى طريق الخير للإنسان فى حياته على الأرض ، والقرآن كله - مهما اختلفت صيغة الخطاب فيه موجه للناس ، أقصد أنه موجه من الله إلى الناس إطلاقاً ، ومحمد ﷺ بشر من الناس ورسول إلى الناس .

وفى سورة الإسراء آيات بينات توضح المعنى الذى أريده :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ ، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ، وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أُنْعَثُ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ، قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ .

(الإسراء : ٩٣ - ٩٥) .

وعبارة « يأياها الذين آمنوا » تتكرر فى القرآن عشرات المرات ، وكذلك عبارة « يأياها النبى » و « يأياها الملأ » لأن الله سبحانه يخاطب الناس مباشرة ولن تجد الخطاب موجهاً فى القرآن إلى « أولى الأمر » أو إلى العلماء أو إلى الملوك أو إلى سراة الناس ، لأن الإنسان العادى ، الإنسان إطلاقاً هو المقصود فى القرآن والإسلام كله ، ورسول الله واحد من الناس اختاره الله وزانه بالكمالات وهياه لحمل رسالته إلى الناس .

وعندما اتجه الرسول إلى عليّة القوم ليكسبهم للدين قال له الله سبحانه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنْ اسْتَعْصَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ، كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ . (سورة عبس ١ - ١٢) .

لهذا فإن أمة الإسلام ينبغي أن تكون أمة الناس عامة وهى فى هذا تختلف عن أمم الجاهلية ، أمّا ما قبل الإسلام فتلك كانت أمم الملوك والكهان وعلية القوم ، والأمراء والقادة - عسكريين وسياسيين - والأغنياء والأقوياء ولهذا فسد أمرها وضلت الطريق .

ولهذا طلب رسول الله من رجال يثرب أن يختاروا نقباءهم أو نوابهم لكى يشاوروهم فى الأمر ولكى يكون الأمر فى أمة الإسلام شورى .

ومن أكبر الدلائل على ذلك أن الله نزل القرآن بلسان عربى مبين ، أى واضح يفهمه عامة الناس :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ . (الشعراء الآيات ١٩١ - ١٩٥) .
وفى سورة المائدة ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (من الآية ١٥) .

والقرآن يوصف فى القرآن نفسه مرة بعد أخرى بأنه « كتاب مبين » « وقرآن مبين » . . و « الكتاب المبين » ومهمة رسول الله ﷺ توصف بأنها « البلاغ المبين » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . (هود : الآية ٩٦) .

فالمبين هنا هو « السلطان » وسلطان موسى كان السحر المبين . ويؤيد ذلك قول الله سبحانه فى سورة « المؤمنون » (الآية : ٤٥) . ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . ومثله قول الله فى سورة غافر (الآية ٢٣) . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ . فقارن هذا بقول الله سبحانه فى أول سورة الزخرف : ﴿ حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . (الآيات : ١ - ٣) .

والأمثلة من الآيات القرآنية هنا كثيرة جداً ، وكلها تؤكد المعنى الذى أقصد إليه هنا ، وهو أن رسالة الإسلام جاءت فى لسان عربى مبين يفهمه الناس كافة . حتى إذا أنت ترجمت معانيه إلى لغة أخرى كانت واضحة لا لبس فيها إذا كان الناقل محسناً لنقل المعانى من اللسان العربى المبين إلى لغة مبينة بلسانه أبا كان ، لأن القرآن كما قلنا موجه للناس على إطلاق « .

ولهذا أراد الرسول أن يكون على صلة مباشرة بالأمة فطلب إليها منذ البداية أن تختار الذين سيكونون من أهل الشورى .

وغريب من الأمر أن الذين فهموا رسالة الإسلام عندما استمعوا إليها كان معظمهم من بسطاء الناس فى الجماعة المكية والجماعة المدنية على السواء ، أما كبار القوم وسادتهم وفطاحل شعرائهم فلم يفهموا الرسالة أو فهموها وكبر عليهم أن يعملوا بها .

فهمها عمار بن ياسر ، ولم يكن بقرشى ولا مكي ، إنما هو ابن لاجىء يمنى يسمى ياسراً نزل مكة مع أخوين له : جاءوا من قبيلتهم عنس ليبحثوا عن أخ لهم . فدخل ياسر فى ولاء أبى حذيفة بن المغيرة بن بنى مخزوم ، فزوجه أمة من إمائته تسمى سمية فأنجبت له ابنه عمار ، وكان عمار عندما بدأ رسول الله يدعو ، شاباً من عامة أهل مكة لا يقرأ ، ففهم الرسالة وأسلم هو وزوجه سمية وأسلم أبوه ياسر وأخوه عبد الله بن ياسر ، فتعلم ياسر بعد إسلامه وصار له فى أمة الإسلام شأن .

وفهمها ودخل فيها خباب بن الأرت ، وكان أسيراً فى مكة أصله من الرقيق وكانت فى كلامه لكثة إذا تكلم بالعربية وكان يعمل قيناً أى حداداً .

وفهمها صهيب بن سنان ، وكان أبوه سنان فارسياً أما هو فقد سباه الروم فنشأ فى بلادهم « فكان ألكن » كما يقول البلاذرى . فابتاعه رجل من قبيلة

كلب ، فقدم به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان سيد بنى تيم بن مرة بن كعب ، فاسترقه ثم أعتقه ، « فكان أحمر شديد الحمرة » ، فسمى رومياً لذلك .

وكان صهيب من السابقين الأولين ، وكان في المستضعفين . فلما أسلم كان ينفق ماله كله في إطعام المساكين ، وقد أحبه الرسول صلوات الله عليه وقال فيه : « صهيب سابق الروم » .

وفهمها بلال بن رباح ، وهو حبشى مكى وبيع في مكة ، وكان في أول أمره لا يكتب ولا يقرأ ، وقد أصبح بلال من كبار أمة الإسلام في المدينة وخبره معروف .

وفهمها عامر بن فهيرة وكان مولداً من مولدى الأزد وكان مملوكاً يربى الغنم لمولاه .

وفى موضع قادم من مواضع هذه الدراسة سنتحدث بإسهاب عن عمار بن ياسر وخباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان وبلال الحبشى .

وفهمتها وأسلمت زنيرة وكانت جارية فقيرة يرُميها سادة مكة بالجهل ، وكان أبو جهل يتندر بها ويقول « ألا تعجبون هؤلاء وأتباعهم - يريد المسلمين - فلو كان أمر محمد خيراً وحقاً ماسبقونا إليه . أسبقتنا زنيرة إلى رشد وهى من ترون ؟ ..

فاستمع إلى طرف من خبر زنيرة هذه يرويه البلاذرى فى أنساب الأشراف .

قال « وكانت زنيرة قد عذبت حتى عميت ، فقال لها أبو جهل : إن اللات والعزى فعلا بك ماترين ، فقالت وهى لا تبصره : وماتدرى اللات والعزى من يعبدهما ممن لا يعبدهما ، لكن هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد بصرى

فأصبحت من تلك الليلة وقد رد بصرها ، فقالت قريش : هذا من سحر محمد فاشتري أبو بكر رضى الله عنه جارية بنى المؤمل وزنيرة وأعتقهما .

أجل ، فهمها هؤلاء وغيرهم كثيرون لأن الإسلام خاطب فيهم « الإنسان » خطاباً واضحاً مبيناً .

ولم يفهمها أبو جهل وهو الحكم بن هشام سيد بنى مخزوم ، وكان كاتباً قارئاً وسيداً مهيباً ذكياً ذا مال عريض . ولا نحسب أن أبا جهل كان كما نتصور رجلاً غيباً أحق لا يفهم شيئاً ، بل كان رجلاً لبيباً ، وكان رسول الله ﷺ يرجوه للإسلام ، وقد دعا ربه ذات يوم فقال :

« اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » . والأول عمر بن الخطاب والثانى أبو الحكم عمرو بن هشام . . ولكن غناه ومركزه في قومه جعله يحسب نفسه فوق الناس ، ولهذا لم يفهم رسالة الإسلام لأنها رسالة للناس . وقرأ مايقوله محمد بن حبيب النسابة عن أبي جهل في « المحبر » لتعرف حقيقة أبي جهل وتعرف كيف كان ممن (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) .

ولم يفهمها أبو لهب وهو عبد العزى بن عبد المطلب ، وكان كاتباً قارئاً ولكنه كان يرى نفسه سيداً عظيماً ، وكان شديد الغيرة من محمد ابن أخيه ، وكان يكرهه من صغره لأن محمداً كان أميل إلى حمزة وكان عمه أيضاً فحالت غيرته وكراهيته بينه وبين الإسلام . . .

ولم يفهمها اثنان من أكبر شعراء قريش في زمانها هما :

أبو سفيان بن الحارث ، وكان من أهل قرابة الرسول ، فلما نزلت عليه الرسالة ، حسده حسداً شديداً وأبغضه وأخرجه البغض عن إنسانيته فمضى يذم محمداً بشعره ويقذع في ذلك .

والثاني هو ضرار بن الخطاب وكان شاعراً مجيداً ، وكان من كبار قريش يرى أن هذه الرسالة كان لابد أن تنزل على واحد من عظماء قريش لا على محمد وكان واحداً ممن عنتهم الآيات الكريمة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ، قَالُوا هَذَا يَسْحَرُوْنَا بِهِ كَافِرُونَ ، وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ، أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .
(الزخرف : الآيات ٣٠ - ٣٢) .

لهذا طلب محمد إلى رجال يثرب أن يختاروا من بين أنفسهم نقباء يعرفون الأمة وتعرفهم الأمة لكي يكون الاتصال بينه وبين أمة المدينة مباشراً ، لكي تصل رسالة الإسلام إلى الناس - كل الناس ، ويكون الأمر شوري بين محمد وأصحابه ، والشورى أساس من أسس تنظيم أمة الإسلام ، ووضع القاعدة لها كان الخطوة الثانية التي وضعها الرسول صلوات الله عليه بعد تكوين نواة الجماعة على قاعدة العهد والميثاق والأخذ والعطاء .

والرواية التي روينها التي تقول إن رسول الله ﷺ قال : « أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم » ، هي رواية ابن إسحاق الأولى ، وابن إسحاق رجل صادق يتحرى مايقول ، فانظر كيف أضاف الناس بعد ذلك إلى تلك الرواية الصادقة مايفسد معناها ومغزاها فاستمع إلى مايقوله البلاذري في أنساب الأشراف « ثم قال رسول الله ﷺ : « إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً ، وإني آخذ منكم اثني عشر ، فلا يجدن أحد منكم في نفسه شيئاً فإنما يختار لي جبريل فلما سماهم قال : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين » وجعل أبا أمامة أسعد بن زرارة نقيب النقباء ، ثم قام النقباء واحداً بعد واحد فحمدوا الله وأثنوا عليه

بفضل نعمته ، وما أكرمهم به من اتباع نبيه وإجابة دعوته وتحاضوا على نصرته والوفاء بعهده وبيعته ، ثم انصرفوا » . وهذا كلام لا يصح ، لأن الفرق بين دعوة موسى ودعوة محمد جد بعيد .

فموسى كان نبياً من أنبياء بنى إسرائيل ، وقد مضى إلى مصر - وهو مصرى - لكي يخرج يهود مصر منها ويقودهم إلى أرض بقية بنى إسرائيل وهم الأسباط أى القبائل وعدتهم اثنا عشر سبطاً ، ومن تقاليد بنى إسرائيل أن يكون لكل سبط رئيس أو نقيب ، فإذا صدق خبر نقيب بنى إسرائيل فإن محمداً ﷺ لم يأت ليؤكد معنى الأسباط أى القبائل بل ليزيله ، ولا محل لنا للاقتداء بموسى . .

أما القول بأن الحواريين كانوا كفلاء على غيرهم فغير صحيح ، فقد كان الحواريون من مستضعفى اليهود الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، ولم يكونوا كفلاء على بقية بنى إسرائيل . . .

وإذن فمن أين أتت زيادة تقليد محمد لموسى وعيسى ؟
من أصحابنا أهل العلم ممن تولوا نقل السيرة إلينا على طريقتهم من التقليد . .

لقد بعث الله محمداً صلوات الله عليه منشئاً مبتكراً مجدداً ليتجدد على يديه شباب دين الله الواحد ، « القيم » أى القائم أبد الدهر ، فيأبون إلا أن يجعلوه مقلداً متبعاً . .

ولهذا فإننى بعد أن أفنيت عمراً فى قراءة التفاسير أصبحت أميل إلى أن أفسر القرآن بالقرآن والسنة وأفسر السيرة بالقرآن وصحيح الآثار ومنهج التاريخ .
... لأن معظم المفسرين يذهبون بنا مذاهب شتى لا تدرى كيف ولم أتوا بها .

وأضرب لك مثلاً واحداً ، فأنت تعلم أن القضية بين العرب وبنى إسرائيل أن الله سبحانه وتعالى اشتق نبينا - نبي الإسلام - من عترة إسماعيل عليه السلام وإسماعيل هو ابن إبراهيم عليهما السلام من هاجر المصرية وهو الذبيح الذى فداه الله بالكبش العظيم . وقد أعز الله بنى إسماعيل بمحمد وبالإسلام فسادوا الدنيا وأنشأوا ملكاً وحضارة وأمة إسلامية عظيمة كانت شجى فى حلق بنى إسرائيل ، وهذا هو سر عداوة اليهود جميعاً للعرب والمسلمين .

واليهود أو بنو إسرائيل يقولون إنهم أحفاد إسحاق بن إبراهيم جد الأسباط .

وهم لهذا يرفعون إسحاق على إسماعيل ، ويقولون إنه هو الذبيح الذى اختاره الله وفداه وأما اسماعيل فهو عندهم الطريد فى القفار وقومه هم العرب وهم عند اليهود قيثار أو تدار فيجىء الطبرى فى كتابه الرسل والملوك وينفق نحو عشرين صفحة فى تحقيق الذبيح وينتهى إلى أنه إسحاق لا إسماعيل .
فهل هذا معقول يا قوم .

غفر الله لأبى جعفر محمد بن جرير . . .

وبايعت الرسول يوم العقبة الثانية امرأتان إحداهما نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف التى اشتهرت باسم أم عمارة الأنصارية ، والثانية أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة من الخزرج .

هل هذه مصادفة ؟ أو أن وجود هاتين الصحابيتين الجليلتين فى هذا الحادث الحاسم كان رمزاً على جانب أساسى من تكوين أمة الإسلام ، لا موضع

للمصادفة هنا فيما نرى فإنه ليس من العادى فى ذلك العصر أن تخرج امرأتان مع قومهما بعد منتصف الليل وتذهبان إلى شعاب الجبال فى أقصى شمال مكة .
لتشتركا فى اجتماع كان المفروض من بدء الخليقة إلى ذلك الحين أنه من مشاهد الرجال دون النساء .

لكى تفهم عنى ماأقوله أحدثك عما فعلته نسيبة بنت كعب بن عمرو وهى أم عمارة بعد إسلامها لتثبت للنديا كلها أن المرأة فى أمة الإسلام الجديدة صنو الرجل وعديلته وقسيمته فى بناء الأمة وتحمل مسئولياتها ودعنا هنا من أن الشرع جعل حظ الرجل مثل حظ الأنثيين فى الميراث ، فهذا شرع لا مدخل لنا إليه والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار شريعته ، ثم إنه أمر يتعلق بالمال ، والمال ليس مقياساً لكل شىء فى حياة الجماعات ، إنما نحن نشهد هنا بناء أمة فنرى النساء فيها إلى جانب الرجال ، يبايعن ويقمن فى بناء الأمة بنصيب يعدل نصيب الرجال .

وتعال ننظر فيما فعلته أم عمارة نسيبة الأنصارية . فى يوم أحد وفى ميدان الجهاد وهو ميدان الشرف والإيمان وفيه توزن وزنها الصحيح أقدار الناس . . .
قال الواقدى إنها خرجت أول النهار إلى ميدان المعركة ومعها إناء ماء لتسقى الجرحى « فقاتلت يومئذ وأبلى بلاء حسناً فجرحت اثنا عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف » .

وقالت أم عمارة « لقد رأيتنى وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقى إلا نفير » لا يتمون عشرة « وأنا وأبنائى وزوجى نذب عنه ، والناس يمرون به منهزمين ، ورأى رسول الله ﷺ لا ترس معى ، فرأى رجلاً مولياً معه ترس فقال : يا صاحب الترس الترس الذى ترسلك إلى من يقاتل ، فألقى ترسه ، فأخذته فجعلت أترس عن رسول الله ﷺ . . فأقبل رجل على فرس فضربنى ، وترست

له فلم يصنع سيفه شيئاً وولى وأضرب عرقوب فرسه فيقع على ظهره ، فجعل رسول الله ﷺ يصيح : يا ابن أم عماره ، أمك . . أمك : قلت : فعاونني عليه حتى أوردته شعوب .

وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يوم أحد يقول : ما التفت يميناً أو شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني . .

هذا قول رسول الله في أم عماره وهو الصادق الأمين وهي شهادة ذات معنى عظيم بالنسبة لبناء الأمة ، هنا في بناء أمة الإسلام المرأة تحمل نصيباً قدر نصيب الرجل ، فهذا مجتمع جديد إنه مجتمع الإنسان . . والمرأة إنسان كامل في ميزان الأمة الإسلامية كما أراد لها الله أن تبنى على يد الرسول . . .

فهل نحن نقبل بعد ما رأينا من أم عماره وما نعرف عن أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين عائشة وعن أم المؤمنين أم سلمة ، هل نقبل صحة الحديث الذي يردد ويروى حتى أصبح كأنه حقيقة لا شك فيها : النساء ناقصات عقل ودين ؟ . قد يقبلونه بشروط المحدثين ، ولكننا لا نقبله بمنهج المؤرخين . .

ثم إن رسول الله ﷺ لم يؤثر عنه أنه قال : الرجال كوامل عقل ودين ، وهل يثبت عندنا أن الرجال - كل الرجال - كوامل عقل ودين حتى يثبت في - فهمنا أن النساء كل النساء ناقصات عقل ودين ؟ إن كنت تريد برهاناً آخر عن وضع النساء في المجتمع الإسلامي الجديد فاقرأ مشهد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى كما يرويه ابن سعد في طبقاته ، ثم قل لي بعد ذلك إن كانت النساء ناقصات عقل ودين .

إن كل كلمة نقرأها في أخبار بناء أمة الإسلام إنما هي رمز على مبدأ من مبادئ الأمة الجديدة ، والذي حدث أن الأجيال التي جاءت بعد لم تكن قادرة على الإحساس بروح عصر النبوة ، وترجمت السيرة بحسب مفهوميها وتصورها ،

ولا فهل نصدق مايقوله بن هشام في صياغته الناقصة المحرفة للسيرة النبوية عن مبايعة أم عمارة وصاحبتهما للرسول قال : يزعمون أنها قد بايعتا ، وكان رسول الله ﷺ لا يصفاح النساء إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقرن قال : اذهبن فقد بايعتكن .

لقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة لكن الرجال سلبوها إياها في عصور التدهور ، وابن هشام شيخ بصرى مصرى كتب في عصر بداية التدهور وتوفي سنة ٢١٣ هـ أو ٢١٨ هـ ٨٢٨-٨٣٣م وفي تلك السنوات بالذات كان الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد يقتل أحدهما الآخر على عرض من عروض الدنيا وهو الخلافة ، وكان أبو إسحاق محمد المعتصم ابن الرشيد أيضاً يسقط العرب - بناء الأمة - من الديوان .

ولم يكد عهد العقبة الثانية يتم وتوضع الأحجار الأولى في بناء الأمة حتى أرسل الرسول صاحبه مصعب بن عمير داعياً إلى الله ودينه في المدينة ويفقه أهلها ويقرئهم القرآن ، ومصعب بن عمير إنسان ورمز معا . .

كان مصعب بن عمير من أبناء سروات مكة ، فهو من عبد الدار « كان أبواه يجبانه وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة . . . وكان فتى مكة شاباً وجمالاً وسيبياً (أى تيبها) كما يقول ابن الأثير في (أسد الغابة) فلما أسلم تزهّد وترك الدنيا وأهمّل ثيابه ولم تعد له حياة خارج الإسلام . أسلم والرسول في دار الأرقم وتنازل عن ماله كله وهاجر إلى الحبشة بدينه ، ثم عاد وهاجر إلى المدينة وكان صاحب راية الرسول ﷺ في بدر ، ثم استشهد في أحد . .

واقراً معى خبر استشهاده الرائع في موقعة أحد . لقد قاتل وفي يده راية الإسلام حتى قطعت ذراعه فضمهما على الراية حتى تظل عالية ترفرف ، ثم استشهد .

لقد رآه رسول الله ﷺ مسجى على أرض المعركة دون غطاء فتلا قول الله تعالى : ﴿ مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب آية ٢٣) .

هذا كان رسول محمد إلى أهل المدينة ولم نعرف في تاريخ دعوة الإسلام داعياً كان أعظم بركة على الإسلام من مصعب بن عمير : في بضعة شهور أدخل معظم أهل المدينة في الإسلام بإيمانه وتفانيه .

وما العبرة من إرسال الرسول مصعباً إلى المدينة داعياً ؟ العبرة أن الأمة الإسلامية لابد أن يكون لها دعاة على حدودها يمدون بساطها ويزيدون مساحتها ، ويذهبون لذلك حسبة لوجه الله وزهداً في الدنيا وحباً في الله ورسوله ، فهل هذه هي فكرتنا اليوم في الدعوة ؟ .

وهل أمتنا اليوم تشعر بما كان يراه الرسول من وجوب إرسال الدعاة والمصلحين إلى الجماعات الإسلامية الناشئة أو المهتدة بالأخطار واختيارهم على أعلى مستوى ، ويذهبون حسبة لله تعالى .

وهل الدعاة اليوم يتخرجون في معاهدهم ويذهبون إلى مجاهل أفريقية وغينيا الجديدة ودواخل بورنيو وإلى جنوبى الفلبين حيث يقاتل الإسلام عن وجوده . . أو يسارعون في طلب الوظائف في بلاد الريال والدرهم والدينار ؟ وهل الدعوة إلى الإسلام هي أن تسحنفر في الخطب في حى الحسين أو في حى السيدة زينب أو تحتسب أجرك عند الله وتتوكل عليه وتسير في آثار مصعب بن عمير ؟ ألا ترى معى أيها القارئ أننا أحسننا الصنع عندما عدنا بالقافلة إلى نقطة البداية لنسير من جديد ؟

وقامت أمة الإسلام على خطة دقيقة وتوقيت محكم

ومنذ غادر محمد قباء إلى منزله الذى اختاره لنفسه بين بنى مالك بن النجار سار في عمله قدما كأنه قد وضع خطة محكمة للعمل من زمن بعيد ، فما حانت فرصة العمل حتى مضى لوجهته . كل خطوة تؤدى إلى التى تليها ولا وقت للضياع ، كأنما كان الرسول ﷺ يشعر أن منيته تنتظره على عشر سنوات وبضعة شهور هجرية ، وأنه لابد أن يفرغ من رسالته كاملة قبل ذلك الأجل ، فلم نعرف في التاريخ رجلاً بلغ إحكامه في التوفيق ودقته في التقدير وإقباله على العمل المضنى على خطة واضحة مثل محمد .

عاد الشريبيون إلى مدينتهم فرحين بها آتاهم الله ، وعاد معهم معلمهم ومقرئهم الصادق المتفاني في الله ورسوله مصعب بن عمير ، وعاد محمد ﷺ إلى داره وقد اطمأن قلبه إلى أنه وجد الجماعة القوية التى ينشئ فيها أمة الإسلام .

ولقد كانت السنوات الثلاث التى انقضت بين موت أبى طالب ثم خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها من أشق مامر على رسول الله ، فقد وقف وحده تقريباً أمام حائط الكفر الهائل ، وكانت وفاة خديجة قد شقت عليه ، فهذه السيدة المباركة رافقته خمس عشرة سنة قبل البعثة كلها سنوات حب ومودة ، وأمن وهدوء ثم عاشت معه تسعاً بعد البعثة كلها تعب وجهد وصبر جميل ، ولكن خديجة لم تشك يوماً ولا هى ضاقت بما تعانى منه إلى آخر حياتها ، وظل محمد يذكر لها ذلك ويرق كلما جاء ذكر خديجة ، وظل فراغها في نفسه خالياً بقية عمره بعدها .

ولكن محمداً لم يشك لحظة في نصر الله له وأن الفرج آت لا ريب ، ألم يقل الله له في سورة الضحى ﴿ وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ﴿﴾ فهذا هو ذا اليوم يعطيه أجمل العطاء وهاهو ذا اليوم يرضى الرضا كله . وحتى في أحلك أيام المصائب كان واثقاً من أن الله سيعطيه وسيرضى . وهل مرت على رسول الله ساعات هي أقسى من ساعات خروجه من الطائف وقد آذته ثقيف وأغلقت قلوبها دونه ، وأغرت به سفاءها يسبونه ويصيحون به ويرمون به بالحجارة حتى دميت قدماه فاوى إلى جدار حديقة خارج البلد وجلس وخاطب ربه أجمل خطاب وأعظمه إيماناً وأقوى ثقة في الله ونصر الله ، لقد قال محيى الدين بن عربي بعد أن فرغ من « الفتوحات المكية » [كل هذا الذى قلت لا يعدل حرفاً مما خاطب به رسول الله ربه ، ثم يتلون نص الدعاء ويصيح : يا من أشرقت بنور وجهك الظلمات أعطنى قسماً من نور محمد فىنى فى ظلام] . .

قال رسول الله ﷺ : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إني من نكلى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

والعدو الذى يتجهمه هم أهل الطائف .

أما العدو الذى ملكه أمره فهم كفار قريش .

وكانت رياسة قريش قد صارت بعد عبد المطلب إلى ابنه الزبير قليلاً ثم صارت إلى عبد العزى عم محمد أيضاً وهو أبو لهب عدوه وعدو الإسلام .

ولم يستطع محمد دخول مكة عائداً من الطائف إلا في جوار المطعم بن عدى
بعد أن رفض الأخنس بن شريق ، وسهيل بن عمرو أن يجيراه .

وبعد العودة إلى مكة كان الإسراء والمعراج ، وقد أراد الله بهما أن يطمئن
فؤاد محمد ، وهل هناك تكريم هو أعلى من الصعود إلى السماء والاقتراب من نور
رب العرش والصلاة بالنبيين جميعاً إماماً ؟ .

* * *

ومن بديع صنع الله للإسلام وأمته أن محمداً بعد الطائف عرض دعوته على
القبائل خارج مكة دون أن يخطر بباله أن يقصد يشرب .

ذهب إلى بنى عبد الله من كندة في منازلهم وأتى بنى حنيفة في منازلهم وبنى
عامر بن صعصعة في ديارهم فلم يستمع أحد منهم إليه .

حتى جاءه أهل يشرب إلى داره وقلوبهم على أكفهم يطلبون دخول
الإسلام ، ولم يدخلوا فيه فعسب ، بل عرضوا أن يكونوا هم أمة الإسلام وأن
يكون بلدهم مهله .

مامعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا وهو قيام أمة الإسلام وبنائها ؟ معناه أن
الأمة هي التي تختار من يتولى أمرها ، ولا يكون من سيتولى الأمر هو الذي
يفرض نفسه .

هكذا كان في تقدير الله لأمة الإسلام وهي أمته .

هي التي تختار لنفسها .

لقد أراد محمد أن يختار أمته ، ولكن الذي حدث هو أن الأمة هي التي
اختارته .

وذلك أساس لا ينبغي أن تتخلى عنه أمة الإسلام . إنها هي الأساس ،
وهي التي تختار ، ولو كان المختار هو رسول الله .
هكذا قدر الله رب الإسلام وأمة الإسلام .

فأين هذا مما يقوله شيخ مثل ابن جماعة الذي زعم أن الأمة ينبغي أن تخضع
لمن يفرض نفسه عليها ولو كان سفاكاً قاتلاً غاصباً .

وأخذ الصحابة يهاجرون إلى المدينة وينزلون على إخوانهم من الأنصار .
ولأول مرة في تاريخ العرب تستقبل جماعة من العرب ناساً غرباء عليها بالترحاب
الذي تلقى به أهل المدينة أصحابهم الذين هاجروا إليهم ولكن المجير هنا هو الله
سبحانه وتعالى ، وكل أمة الإسلام في جواره لأنها أمتة مادامت سائرة في طريقه .

وظل محمد في مكة آمناً في رعاية الله ، يرى صحابته يهاجرون إلى الأمن
ويتبأون الدار والإيمان وهو لا يشك في النصر القريب .

ويشاء الله سبحانه أن يزيده آمناً واطمئناناً إلى المصير الذي ينتظره في مهجره
الجديد ، فينزل عليه الآيات التالية من سورة الإسراء وهي من آخر ما أنزل على
محمد في مكة :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ
مَقَاماً مَحْمُوداً ، وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ
وَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ، وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ
كَانَ زَهُوقاً ، وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ . (الإسراء : الآيات ٧٨ - ٨٢) .

فانظر كيف يأمر الله رسوله بإقامة الصلاة قبل طلوع الشمس وساعة الغسق ويأمره بصلاة الليل ليطمئن بها قلبه .

ثم انظر كيف يأمره بأن يسأل الله أن يدخله (المهجر الجديد) مدخل صدق قبل أن يسأله الخروج (من مكة) مخرج صدق وجميل أن يأمره الله بأن يسأله صدق المدخل إلى المدينة قبل أن يسأله صدق المخرج من مكة .

وبشره بأن الحق قد جاء وأن الباطل قد انتهى أمره . وهذه ليست بشارة له وحده بل للبشر أجمعين ، فقد جاء الحق للدنيا كلها ، وزهق الباطل للعالمين أجمعين .

* * *

وأذن الله سبحانه لمحمد رسول الله ﷺ في أن يهاجر من مكة إلى المدينة ، فخرج من بيته ليلاً في الخبر المعروف على الأغلب في اليوم الأول من ربيع الأول السنة الأولى للهجرة . وهذا التاريخ يقابل يوم ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وهو بحسب جداول التقويمات التي لدينا يوم اثنين ، ويقول ابن اسحق إنه خرج من الغار ليلة الاثنين لأربع خلون من ربيع الآخر ، والأقرب إلى القول أنه وأبا بكر خرجا من الغار في اتجاه المدينة قبيل فجر الرابع من شهر ربيع الأول (على هذا الحساب) لأن الليالي في حساب العرب تسبق النهار ، وعلة ذلك أن اليوم عندهم ينتهي بغروب الشمس ، وبعد ذلك يبدأ اليوم التالي وليله سابق على نهاره حتى يكتمل اليوم أربعاً وعشرين ساعة عند الغروب التالي . فإذا كان قد دخل الغار بعد نصف ليل غرة ربيع الأول فيكون قد خرج منه مع فجر اليوم الرابع من ربيع الأول وهو يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ٦٢٢ م ، والمراجع تقول إنه

يوم اثنين ، وهذا لا يصح إلا إذا كان رسول الله وصاحبه قد قضيا في الغار أسبوعا وهو أمر لا يستقيم .

ثم تجيء مشكلة تاريخ الوصول إلى قباء ، فمراجعنا تقول إنه وصل إليها يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول وهو الرابع والعشرون من سبتمبر ٦٢٢ م وهو يوم أربعاء لا يوم اثنين . ثم إن القول بأنه خرج من الغار يوم ٤ ربيع الأول ووصل إلى قباء ١٢ ربيع الأول عسير على القبول ، لأن معناه أنه هو ومن معه قطعوا بحسب وصف الطريق الذي لدينا فوق الأربعمئة والخمسين كيلومترا في ثمانية أيام ، أى معدل يزيد على ٥٠ كيلومترا في اليوم الواحد ، وهو أمر يكاد يكون مستحيلا ، اللهم إلا إذا كانا قد سارا ليلا ونهارا دون توقف ولم يقل هذا أحد من الإخباريين ، وإذا كان ولابد من القول بأنه ﷺ وصل قباء في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول (وهو يوم ميلاده كذلك) فلا بد أن نصحح تاريخ الخروج من مكة أو تاريخ الخروج من الغار ، وربما كان الأصح أن يقال إن الأول من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة هو يوم الخروج من الغار ، ويبقى بعد ذلك أن الثاني عشر من ربيع الأول من نفس السنة لا يمكن أن يكون يوم اثنين ، إنما هو يوم أربعاء على ما قلناه .

والهمم لدينا أن رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق وصلا قباء مع دليلهما عبد الله بن أرقط أو ابن الأريقط ضحى الثاني عشر من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة وذلك يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م . وغريب من الأمر أن هذا للدليل الناصح . . ابن أرقط أو ابن الأريقط لم يسلم ومات كافرا في حين أن سراقه بن جُعْشَم وهو الذى أراد اللحاق برسول الله وقتله أسلم يوم فتح مكة .

ويهمنا هنا ما يذكره ابن كثير في تاريخه من أن رسول الله قبل خروجه من مكة كان قد واعد عبد الرحمن بن عوف على أن يلقاه على مسافة من قباء بثياب جديدة بيض له ولأبى بكر ، وعبد الرحمن بن عوف هاجر قبل محمد ، فلعله أعد الثياب

وعندما بلغت الأخير أهل قباء أن رسول الله وأبا بكر قد وصلا إلى العرج ونزلا القاعة على ثلاثة مراحل - أى ثلاثة أيام من المدينة انتشر الخبر وفاض . وكان ركب الرسول قد اطمأن وطامن من سيره بعد أن فرغ من ناحية الفرع (بضم الفاء والراء) فقد دخل الركب في منطقة المدينة ولم يعد هناك خطر من المكين .

غير أن هذا الاهتمام من رسول الله بأن يدخل المدينة في ثياب جدد ناصعة البياض لابد أن يستلقت نظرنا ، فإن حكايات الأنبياء كما تروى لنا ترينا إياهم شعثاً في ثياب خشنة غير ذات هيئة من الصوف ، وهذا مقبول ومعقول ، ولكنه غير معقول ولا مقبول بالنسبة لرسول الله .

ذلك أن الله سبحانه برأ محمداً على صورة تأخذ القلوب فعلاً . وليس من الضروري أن نتابع هنا صفة محمد كما تتوارد في النصوص عن علي بن أبي طالب وأُس بن مالك وأبي هريرة والبراء بن عازب ومن في طبقته من أجلاء الصحابة ، فهذه ليست صورة إنما هي تصور فقد جمعوا فيها المحاسن كما تصورها على نحو فيه تكلف حتى لقد قالوا إن عنقه كأنه عنق دمية في صفاء الفضة وقالوا من لبته (بفتح اللام وهي آخر الرقبة) إلى سرتة شعر يجرى كالقضب ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره إلى آخر هذه التفاصيل التي أملتتها المحبة وصدق الولاء ، غير أنك إذا جمعت تفاصيل هذه الملامح كما ترد في كتب السيرة وخاصة سائل الترمذى والشروح المتأخرة كالروضي الأنف للسهيلى وشرح المواهب اللدنية للزرقاني اختلط عليك الأمر ولم تر شيئاً واضحاً ، ولذلك فقد قلت إن هذا تصور وليس بصورة .

ولكن الثابت أن محمداً كان وسيماً قسيماً بهي الصورة وضيئاً ذا هيئة متناسبة جميلة توقع في قلب من يراه المحبة والهيبة في آن معا ، وكان وجهه ينطق عن شخصية عظيمة مهيبة حقاً ، وقد زان وجهه شعر غزير كان الرسول شديد الحرص على ترحيله وتهذيبه وإرساله وراء أذنيه .

وقد أكمل رسول الله هذه الصورة البديعة التي برأه الله عليها بعناية دائمة بمظهره دون تكلف أو ترف ، فما عرفنا من ثيابه إلا القطن الأبيض والصوف البسيط ، وكلاهما في غاية النظافة ، فقد كان ﷺ يغتسل مرة على الأقل في اليوم غير الوضوء السابغ خمس مرات على الأقل في اليوم ، وكان يغسل ثوبه بيده مرتين في اليوم في غالب الأيام ، وكان حريصاً على أن يكون هذا الهندام البسيط دائماً في أحسن صورة ، وكان لا يطبق وضراً في بيته حتى كان يكنسه بيده ولا يأكل أو يشرب إلا نظيفاً بل كان لا يأكل شيئاً فيه ثوم أو بصل ، فكان يردّه ويقول : « كلوه أنتم ، إنما أنا رجل أناجى » أى أنه يتحدث إلى الناس من قريب ، ولا يحب ريح هذه الشجرة . . أى شجرة الثوم أو البصل .

والسواك وهو فرشاة الأسنان الطبيعية لم يستعمله أحد في التاريخ كما استعمله محمد ، لأنه كان حريصاً أشد الحرص على بهاء أسنانه وطيب نفسه ، لقد كان يقبل عليه حتى خاف بعض الصحابة أن يكون الله سيجعله فرضاً على المسلمين ، وإنه لمن غرائب الأخبار أن آخر شيء طلبه رسول الله في مرضه وقبل أن يدخل في غيبوبة الموت هو السواك فناولته إياه عائشة رضى الله عنها فاستن به كأحسن ما رآته يستن بسواك ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله يثقل في حجرى فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شَخَص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

هذا كلام عائشة رضى الله عنها .

* * *

لبس محمد ثوبه الجديد بعد أن اغتسل فأحسن الاغتسال ، ثم تقدم ومعه أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأريقط ، وأقبل المهاجرون والأنصار يرحبون به ولم يكن الكثيرون قد رأوه ، وتكاثر الناس ، ودخل قباء في سمت

ووقار في الضحى ، واستقر في بيت كلثوم بن الهدم وهو من كبار شيوخ بنى عمرو ابن عوف أصحاب قباء وهم من الأوس وكان هذا الشيخ عزباً لم يتزوج ، وقد نزل لهذا في بيته عزاب المهاجرين وسمى البيت بيت العزاب .

ولكنه كان يجتمع بالناس في دار أخرى ، هي دار سعد بن خيثمة وكان من سراوات بنى عمرو بن عوف وجدير بالملاحظة أن بنى عمرو بن عوف من الأوس ، كان منهم نفر في بيعة العقبة ، وسعد بن خيثمة كان نقيباً . ولكن بنى عمرو بن عوف كانوا دائماً موضع قلق لرسول الله ﷺ بعد ذلك ولهذا أطال الرسول المقام فيهم حتى يزيل ما في نفوس بعضهم من ميل إلى الفتن وبنى في منازلهم أول مسجد بنى في الإسلام ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء .

مكث الرسول في قباء أربعة أيام وهي في نظر الكثيرين فترة طويلة ، ولكن الحقيقة أنه استوعب خلال هذه الأيام معلومات كثيرة عن الأحوال في المدينة ، ومن خصائص محمد أنه كان يجيد الإنصات ، وكان يعي ممن يحدثه كل شيء ولهذا لم يكن هناك أعلم منه بالعرب والدنيا من حولهم ، وأن الإنسان ليعجب من دقيق ملاحظاته واتساع معلوماته عن العرب خاصة ، كان يعرفهم قبيلة قبيلة وأين تعيش ومن رؤساؤها ، وما موقفهم من الإسلام وما موقفهم من قريش وعلاقاتهم بمن حولهم تقابل ذلك حقيقة كبرى وهي أنه كان قليل الكلام ، فإذا تكلم قصد إلى ما يريد رأساً في أقصر عبارة وأبلغها . كان يفضل السماع على الكلام وما أحب أحداً - أيا كان - أن يتحدث إليه إلا أعاره سمعه وصبر عليه حتى يقول كل ما يريد أن يقول ثم يحبيه بما ينبغي أن يقال .

لهذا لم يغادر ديار بنى عمرو بن عوف إلا بعد أن عرف تماماً ماذا سيعمل وكيف سيعمله ، في تلك الأيام القليلة عرف محمد أمته وحديثه عمر ومصعب بن الزبير والنقباء حديثاً طويلاً عنها فاستوثق من أمر نفسه وعقلها وتوكل . . .

وقد نهض محمد من ديار بنى عمرو بن عوف الأوسيين يوم الجمعة وهذا مؤكّد ، لأن صلاة الجمعة ستدركه في منازل بنى سالم بن عوف من الخزرج وهم المعروفون بنى الحبلى أو بنى سالم الحبلى أو بالحبلى (بضم الحاء في كل حالة) ، وهم قوم عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فيما بعد .

ثم سار وهو على ناقته المشهورة المسماة (بالقصواء) . . وبعد أن صلى الجمعة بنى الناس مسجداً في ذلك الموضع عرف بمسجد رانواء نسبة إلى وادى رانواء الذى يمر بمنازل بنى سالم . .

ثم عرض عليه بنو سالم أن يقيم عندهم ، وقالوا عبارة ستتكرر كثيراً في ذلك المسير التاريخي : أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة أى أقم عندنا ونحن قادرون على أن نفى لك بها عاهدناك عليه في العقبة الثانية .

* * *

ويكون رد رسول الله : خلوا سبيلها فإنها مأمورة والإشارة هنا إلى القصواء .

ومامعنى : أنها مأمورة ؟

ألسنا جميعاً مأمورين من الله سبحانه في كل مانفعل ؟

ولماذا نفسرها على أنها مأمورة من الله سبحانه وتعالى ؟ ولماذا لا نفسرها على أنها مأمورة من محمد ، لأنه بعد أن درس أحوال المدينة عرف أين يريد ، فهو لا يريد أن ينزل في العدد والعدة والمنعة وليس هو برئيس دنيوى يبحث عن القوة إنما هو نبي ورسول وشاهد ومبشر ، وسنراه ينزل في حيث ينبغي أن ينزل النبي

الشاهد المبشر النذير وأين يكون السراج المنير إلا وسط المدينة حتى يصل نوره إلى أطرافها جميعاً على سواء ؟ .

إلى هناك كان يقصد محمد ..

وهذا ماكان يريده بقوله : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ..

لقد كان يريد أن يستقر في وسط المدينة وسط السهل المحصور بين الحرتين أو اللابتين ولا يريد أن ينزل عند قوم ذوى جرأة على القتال وميل للحرب ، فقد كان يستطيع أن ينزل عند بنى سالم الحبلى أو عند بنى بياضة ولكنه عرف أن هؤلاء أيضاً بينهم وبين جيرانهم خصومات وتارات ، ورفض أن ينزل في منازل بنى ساعدة فهناك سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وهما زعيمان فيهما تطلع للرياسة وعصبية وضعف عن ضبط النفس ، ولم ينزل كذلك عند بنى الحارث بن الخزرج فقد كان لهم وزن سياسى خفيف في المدينة وهم قوم سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحه ، ولكنه استقر عند بنى مالك بن النجار دون بنى عدى ابن النجار . فقد كان بنو النجار عموماً هم من أضخم الأحلاف القبلية في المدينة . وكانت فيهم دماثة وعقل وحكمة وهم قوم أسعد بن زرارة وعمارة بن حزم ومعاذ بن الحارث ونفر آخر كثير ممن ستتجلى مواهبهم في أمة المدينة وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة بالذات أثير على رسول الله ﷺ لأنه كان من السابقين الأولين ممن دخلوا الإسلام من أهل المدينة وهو أول من اتخذ مصلى في أرضه ، ولولا أنه مات قبل بدر بقليل لكان له شأن عظيم ..

* * *

ويستوقف نظرنا أن ناقة رسول الله ﷺ عندما استقرت في منازل بنى مالك ابن النجار وجلست ووضعت جِرائَها فنزل عنها رسول الله ﷺ ، فاحتمل

أبو أيوب خالد بن زيد رحل رسول الله ﷺ فوضعه في بيته وقال الرسول : المرء مع رحله كأن الأمر كان مقرراً بين محمد وأصحابه قبل أن يغادر قباء ثم نزل على أبي أيوب . وفي دار أبي أيوب أقام الرسول صلوات الله عليه حتى ابنتت له غرفة التي أقام فيها بقية عمره في الركن الجنوبي الشرقي من المسجد .

ويبدو أن رسول الله ﷺ استراح لأسعد بن زرارة سيد بني مالك بن النجار وقومه بني مالك بن النجار فقد كان أبو أمامة شاباً ذا همة وعقل وقلب مال قلبه إلى الإسلام منذ العقبة الأولى وأسلم على يد مصعب بن عمير وحضر العقبة الثانية وكان من النقباء وكان معه في بيعة العقبة تلك أحد عشر رجلاً من قومه من بينهم أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب الذي نزل عنده وعمارة بن حزم ، وحضرها معه ستة من بني عمومته بني الحارث بن الخزرج فيهم سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة الشاعر الذي كان أعظم شعراء الرسول وسيستشهد في مؤته . . .

هنا بين قوم كلهم حب للإسلام وإيمان به نزل الرسول ، ولنلاحظ هنا أن أحداً من المؤرخين لم يذكر في هذه المناسبة أن بني النجار كانوا أحوال محمد لأن الخؤولة هذه شيء قديم ولا يكاد أحد إذ ذاك يذكر سلمى بنت عمرو بن زيد ابن لبيد من بني عدي بن النجار التي تزوجها هاشم بن عبد مناف وأنجب منها أولاداً منهم عبد المطلب جد محمد ، ويثبت لنا بهذا أن محمداً لم ينزل ببني النجار لأنهم أحواله كما يقولون فهم ليسوا أحواله أصلاً . ثم إن سلمى كانت من بني عدي بن النجار وهؤلاء بنو مالك بن النجار .

نقول هذا لأننا مادمنّا نتكلم عن الإسلام وأمه الجديدة فلا محل لعمومة ولا خؤولة ولا قرابة إنما هو الإسلام وأمة الإسلام وقد ظهرت مسألة الخؤولة هذه فيما بعد ابتكرتها الأجيال المتأخرة ، وابتكرت تلك الأجيال أيضاً قصة دخول الرسول المدينة من ثنية الوداع وابتكروا أغنية طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

فإن محمداً دخل المدينة من جنوبها الغربي بتعبير أدق من ناحية قباء ، وثنية الوداع في شمال المدينة ولكي لا نفجع الناس في هذه الأسطورة العزيزة عليهم يمكن القول بأن هذه الأنشودة وضعت وأنشدت في عودة الرسول ﷺ فيها بعد من إحدى غزواته في الشمال .

وشيء آخر جعل الرسول ﷺ يقرر النزول في ديار بني النجار ، وهو أن منازلهم كانت في وساع من الأرض كانت لهم مزارعهم ونخيلهم وأطامهم أى حصونهم . ولكن كانت هناك في ديارهم أراض أخرى واسعة بور لا يزرعها أحد ومن ثم لم يكن يملكها أحد . وكان الرسول قد تفاهم مع أهل المدينة ربياً في قباء على أنه له التصرف في أى أرض بور غير عامرة ، وكان رسول الله في حاجة إلى هذه الأرض كان يريد أن يجد أرضاً لمن هاجر قبله ومعه وبعده من القرشيين لكي يقيموا لأنفسهم دوراً ويزرعوا أرضاً ، أما هدفه الثانى وهو الأهم فهو إنشاء المسجد . .

والجميل في سيرة الرسول أننا نراه منذ وطئت قدماه قباء يتصرف كأنه يسير على خطة محكمة وضعها بإحكام من قبل . وعندما جاءت الفرصة سار في التنفيذ قدما كل خطوة تعقبها خطوة والخطوات تتلاحق وتتكامل وبناء الأمة يسير بترتيب وإحكام وتوقيت دقيق كأنما كان محمد يعلم أنه لم تبق له من سنوات العمر إلا عشر سنوات وبضعة شهور هجرية ولا بد له أن يتم رسالته كاملة خلال هذا الأمد القصير فليست هناك ساعة واحدة للضياع وفعلاً : خلال هذه الفترة لم يسكن محمد لحظة من نهار وما كان يصيب من النوم أكثر من ثلاث ساعات أو أربع على الأكثر في اليوم واللييلة وقد حسبته ألف مرة في دراستي للسيرة فلم أجده يوماً واحداً نام أكثر من هذا القدر ، ومن نعم الله التى أكرم به أنه كان سريع النعاس قادراً عليه إذا أراد فإذا نام نام في عمق فكانت ساعة نومه بساعات . وفي معركة الخندق وفي أثناء الحصار والخطر والبرد والرياح كان لا يكاد ينام بضع

دقائق حتى يوقظه شيء فينهض وينظر الأمر ثم يعود فلا يكاد ظهره يمس الأرض حتى يسمع غطيته لينهض بعد ذلك مرات عديدة في الليلة الواحدة . .



وكان المسجد ضرورة لأن الصلاة عماد الإسلام ومادامت الجماعة قد قامت فلا بد لها من مسجد ولا بد أن محمداً رأى أثناء رحلته الثانية إلى الشام بتجارة السيدة خديجة كنائس النصراني وبيع اليهود ، ولكنه عندما شرع في بناء مسجده أنشأه على نحو جديد لم تعرفه معابد أي دين آخر ، ولا يمكن القول بأن مسجد الرسول في المدينة كان مسجداً بدائياً لأنه كان منذ البداية مسجداً كاملاً وإن كان بسيط الهيئة فقد ضم من أول الأمر العناصر الأساسية في المساجد وهي بيت الصلاة والصحن والقبلة والمحراب والمنبر ، فهذه هي العناصر الأساسية وماعدا ذلك مما وجد بعد ذلك فعناصر غير أساسية كالمئذنة والقبّة والأعمدة والعقود وما إلى ذلك حتى بساطة مسجد الرسول كانت جزءاً من أصالته وكانت متفقة مع روح الاسلام ومعنى الصلاة وقد استوحى الرسول هيئة مسجده من روح الإسلام فالإسلام في لبابه طريق بين الله وعباده ، وهذا الطريق ينبغى أن يكون مستقيماً مباشراً ، وهل هناك طريق أكثر مباشرة من مساحة من الأرض تنظف وتمهد وتسور أو تحاط بسيياج أو خندق كما حدث في مسجد البصرة لكيلا يوغل في حرمه أحد وتفرش أرضه بشيء نظيف مثل الحصى الصغير (الزلط) أو الحصر فوقها ، وفي هذه المساحة يتجمع المسلمون لإقامة الصلوات في أوقات محددة ، وتتجه وجوههم وجهة واحدة تجسيدا لوحدة أمة الإسلام . هكذا أنشأ الرسول مسجده . اختار قطعة من الأرض كانت تستعمل مربداً ، أى موضعاً لتجفيف التمر وكان في تلك الأرض نبات برى كثير أغلبه الغرقد وفيه كذلك ماء مستنقل أى مستنقع ، وكانت فيه قبور جاهلية أى قديمة ، فنظف ذلك كله

ومهدت الأرض وحفر أساس المسجد على عمق ثلاث أذرع أى متر و ٧٤ سنتيمترا لأن طول الذراع في المدينة في العصر النبوى ٥٨ سنتيمترا . وكان هذا الأساس من الحجر ثم أقيم جدار المسجد من اللبن . وجعل جدار القبلة من الحجر في الغالب وعلى الجدار في اتجاه بيت المقدس أى إلى الشمال الغربى حدد موضع المحراب ، أما المنبر فكان درجة من الخشب وربما من اللبن إلى جوار المحراب . . وسقفوا جزءاً من مقدمة المسجد بسقف من سعف وخشب يقوم على جذوع نخل وهذا هو بيت الصلاة ، وكانت مساحة المسجد عندما بنى أول مرة ٨٦ , ٣٢٨٠ متر فهو مسجد كبير ولا بد أن يكون بناؤه قد استغرق شهورا بخلاف مايفهم من كلام رواتنا ، ونستطيع القول بأن العمل استغرق سبعة شهور على قول وتسعة على قول آخر وهذا هو الأصح وهى المدة التى أقامها الرسول في بيت أبى أيوب خالد الأنصارى .

وقد جعلت للمسجد ثلاثة أبواب واحد في يمينه وهو الباب الذى كان يدخل منه الرسول ويسمى باب أبى بكر ، وكان في شرق المسجد ، وباب ثان يسمى باب الرحمة ، وباب ثالث ، ومما يدل على صلاية البناء أن جانبي باب أبى بكر بنيا بالحجر ويسمى جانبا مداخل المساجد بالعضادتين . .

وبعد قيام المسجد مباشرة بنيت غرف للرسول في الركن الجنوبي الشرقى وانتقل إليها الرسول . .

وبقيام المسجد أصبح للأمة وجود مادى إلى جانب وجودها المعنوى ، فلم يكن المسجد موضعاً للصلاة فحسب إنما كان موضع اجتماع المسلمين للاستماع إلى خطب الرسول إذا دعاهم الداعى إلى ذلك ، وفيه يتلاقون لقراءة القرآن أو لمجرد الأُنس بعضهم ببعض أو لسماع الأخبار ، وانتقل الرسول ﷺ إلى المسجد أصبح للمسجد معنى سياسى أيضا فهنا يقيم رئيس الأمة ونبينا ورسول الله ، من هنا تدبر أمور الجماعة كلها . .

فى أثناء بناء المسجد تمت خطوات أخرى ستتحدث عنها فى أحداث قادمة . ولكن الذى يهمنا هو أن نرى كيف كانت الأمة تبنى معنوياً ومادياً خطوة خطوة ، ففى ذلك الحين كانت آيات سورة البقرة ثم آل عمران تنزل على رسول الله ، والبقرة - كما يقول المفسرون - سنام القرآن أى قمته وهى سورة طويلة متعددة الموضوعات وفيها عناصر كثيرة من عناصر تكوين الأمة سنشير إليها فى مواضعها ، وكذلك سورة آل عمران ، ومن المحقق أنها أنزلت بعد البقرة وهما معا تسميان الزهراوين أى الزهرتين والتسمية رمز على شجرة الأمة الحية التى كانت تنمو وتعلو رويداً رويداً .

وقبل أن أختتم هذا الحديث أشير إلى أسطورة أخرى فإن رواتنا يقولون إن أرض المسجد كانت ملكاً للغلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة وقد ساومهما الرسول ودفع لهما ماطلباؤه وعندما نحقق الأمر نجد أن ذلك غير صحيح فواحد من هذين الغلامين سيشارك فى موقعة بدر . وبدر كانت فى ١٩ رمضان سنة ٢ للهجرة فكيف يشترك واحد من الغلامين فيها وهو يتيم صغير فى حجر أبى أمامة أسعد بن زرارة ؟ ولكن المؤكد أن الرسول اشترى أرض المسجد ودفع ثمنها .

* * *

إننا نزيل الأساطير وهى أجمل ما فى التاريخ ، وقد قال ميشيليه المؤرخ الفرنسى البليغ : إن التاريخ قسبان قسم جميل وهو الأساطير وقسم غير جميل وهو الوقائع وعملنا نحن المؤرخين هو القضاء على النصف الجميل والإبقاء على النصف غير الجميل وبإلها من مهمة ثقيلة . .

تربية الأمة بالأسوة الحسنة

(فاسس رسول الله المسجد وأنسسوا معه .. وبناه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ...) .

محمد بن سعد عن الواقدي

بقيام مسجد المدينة أصبح لأمة الإسلام وجود مادي ملموس . والمسجد لم يكن مصلى فحسب ، بل كان ملتقى المسلمين ومجمعهم . إنه بيت أسرهم ، هنا كانوا يصلون ، والصلاة طريق المخلوق إلى الخالق وهنا يتلاقى المسلم والمسلم ليشعرا بالأنس والقوة والمحبة ، لأن المسجد هو بيت الله ، وهو كذلك بيت كل مسلم . إلى هنا كان يفزع المسلمون إذا حزهم أمر . والمسجد عاصمهم ، قل عاصمتهم ، لأن فيه مقام رسول الله ﷺ ، وبالفعل بمجرد قيام المسجد تحولت المدينة إلى « عاصمة » . . الإسلام لا بالمعنى السياسى فحسب ، بل بالمعنى الدينى الإسلامى ، فهنا تؤدى الصلاة . والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فهي عاصمة من الضلال . .

لهذا لم يقدم الرسول على إنشاء المسجد شيئاً . منذ اليوم الأول لمقامه في دار أبى أيوب بدأ التفكير في إقامة المسجد وعمارته ، ومن الأسبوع الأول تم التفاهم بين الرسول وأمته على أرض المسجد وعمارته ، ثم كان الشروع في العمل الذى استغرق - كما جاء في ابن سعد عن الواقدي - من ربيع الأول سنة ١ للهجرة إلى صفر سنة ٢ للهجرة (سبتمبر ٦٢٢ - يوليو ٦٢٣ م) .

وهناك حقيقة أخرى تتصل بمسجد الرسول لها أهميتها بالنسبة لمبحثنا هذا : هي أن الرسول اشترك في بنائه بنفسه ، عمل بيده في البناء . قال ابن إسحاق فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل فذاك منا العمل المضلل

وهذا البيت من الشعر يضع يدنا على العبرة من اشتراك الرسول في العمل في بناء مسجد الجماعة بيده ، إنها الأسوة الحسنة ، وهذا رجل من المسلمين يقول إننا لو قعدنا عن العمل ورسول الله يعمل فذلك منا خطأ وضلال . .

وإذن فهي الأسوة الحسنة التي أراد الرسول أن تكون سبيله لتربية جماعته . كان إذا أراد من المسلمين أن يعملوا عملاً بدأ هو العمل بنفسه دون أن يصدر أمراً . فإذا رآه الناس تبعوه فيه طوعية واختياراً ومحبة . يجدون في ذلك شرفاً وقرينة . .

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى معنى الأسوة الحسنة وجعلها قاعدة دينية أخلاقية قال في سورة الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ . (الأحزاب : الآية ٢١) .

وسورة التوبة أو براءة هي كما قلنا سورة التقين والتشريع النهائي للكثير من الأصول التي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم وكل جماعة مسلمة . . .

وإذن فالأسوة الحسنة واجب وفرض على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين بدلاً من إصدار الأوامر ، لبدأ من ولاه الله أمر المسلمين في شيء بنفسه أخلاقياً وعملياً ، لأن الأسوة الحسنة هي أمثل أساليب التربية . .

وحتى في المغازي لم يكن رسول الله حتى نزلت سورة براءة يصدر أمراً للناس بالخروج ، بل كان يستعد ويتأهب . حتى أبو بكر كان أحياناً لا يعرف أن الرسول خارج إلى غزاة . كان يعلم عن طريق ابنته أم المؤمنين عائشة ، فيسرع ويعد نفسه ، ويخرج الرسول ومن حضر إلى خارج المدينة ، ويعسكر في موضع يسمى الجحرف شمال المدينة وينتشر الخبر ويتلاحق الناس بالرسول ، وهو ينتظرهم يوماً أو بعض يوم ثم ينهض لغزاته بمن حضر . .

لقد قال رسول الله ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . وهذا حق والعبرة من هذا الحديث هي بقيته التي لم يقلها الرسول ولكن نقولها نحن : وأدب محمد أمته فأحسن تأديبها .

لأن الأسوة الحسنة هي تأديب عن طريق إيقاظ الضمير وإذا استيقظ ضمير الجماعة أصبح هو قانونها وشرعتها ومنهجها في الحياة . والقرآن كله ، والإسلام كله إيقاظ للضمير والضمير الحي يفتح الطريق إلى الله وإلى الفضائل . .

وما قيمة كل تشريعات الدنيا وعقوبات القوانين مع الضمير الميت . والضمير لفظ حديث غير قرآني يقابله في القرآن : القلب والقلوب والصدر والصدور واقرأ معي قول الله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . (الأنفال الآيتان ١ - ٢) .

وتأمل قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . (الحج : الآية ٤٦) .

أما الذين ماتت ضمايرهم فلم يعودوا يحسنون شيئاً أو يعرفون فرقاً بين خير وشر ، بين فضيلة ورذيلة فحديث القرآن عنهم طويل .

ولكن اقرأ معي تلك الآيات من سورة الإسراء : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْأ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ . (الإسراء : الآيتان ٤٥ و ٤٦) .

ورواية محمد بن سعد عن شيخه الواقدي في شأن اشتراك الرسول بالعمل بيده في المسجد أبلى من عبارة ابن سعد برواية زياد بن عبد الله البكائي قال : وبناء رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .. وتكمل هذا الخبر عبارة وردت عند ابن هشام : قال (ابن إسحاق) يروى خبر دخول عمار بن ياسر على رسول الله أثناء بناء المسجد . قالت أم سلمة زوج النبي ﷺ : « فرأيت رسول الله ﷺ ينفذ وفرته بيده (أى شعر رأسه) وكان رجلاً جعداً وهو يقول :

ويح ابن سمية .. فكأن رسول الله كان يعمل في البناء حتى امتلأ شعر رأسه بالغبار فجعل ينفذه بيده ..

ترى كم تكلف بناء هذا المسجد الضخم ومساحته كما قلنا ٣٢٨٠ متراً ونيف ، لقد كان أساسه على عمق متر وثلاثة أرباع المتر من الحجر ثم رفع سورته باللبن وجعل جانبا بابه الرئيسي من الحجر وأنشأ فيه عريش بيت الصلاة من جذوع النخل وجعلت الصفة في آخره هذا إلى غرف الرسول ﷺ .

كل ذلك تكلف عشرة دنانير هي ثمن الأرض ، استقرضه الرسول من صاحبه أبي بكر ودفعه ثمناً للأرض ..

والباقي : ثمن الحجر وتنجيده واللبن (بفتح اللام المشددة وكسر الباء) وعمله وجانبنا الباب والعريش والصفة وغرف الرسول ؟ هذا كله بنته المحبة بناه الإيمان وتعاون الجماعة .

لقد تكلف بناء المسجد عشرة دنانير في حساب المال .

ولكن تكاليفه في حساب القلوب والإيمان ألوف بعد ألوف .

وهذا مانسميه يا أخى القارىء ببركة الإيمان وهى تعدل مال الأرض جميعاً وتزيد . .

ونحن يا أخى الملائين بعد الملائين فلماذا نبني بالملايين بعد الملايين ؟

لأن البركة معدومة ، والبركة تأتى من الإيمان . والإيمان هو كل شئ فى هذه الحياة . . ولو آمنت أمة الإسلام جيلاً بعد جيل لما ذهبت عنها بركة الإيمان ولكانت اليوم أغني الأمم وخير أمة أخرجت للناس حقاً . ولكانت الأرض كلها اليوم إيماناً وإسلاماً . .

ومانقول هذا مواعظ ولا أماني ، إنما هى حقيقة ، وانظروا إلى ما فعل أجدادكم بالإيمان . لقد فتح المسلمون أيام الرسول وأيام الراشدين نصف الدنيا بدون مال وأين كانت الخزائن التى كان ينفق منها الرسول وأبو بكر وعمر ؟ إنما خزائن القلوب والصدور . . خزائن الإيمان .

وهذه كلها دروس وعظات نتعلمها من قيام أمة الإسلام أيام الرسول . إنها دروس ومواد داخلية فى دستور أمة الإسلام ، والدستور ليس مجرد النصوص التى تكتب إنما أهم مواد الدساتير والقوانين هى التى لا تسطر بالأقلام فى الطروس . إنما هى التى تنقش فى الصدور بيد الإيمان . .

وفي عالمنا هذا أمة ظللنا نحسدها زماناً على رقيها وقوتها هي بريطانيا رفض أهلها أن يكتبوا دستورهم وفضلوا أن يظل الدستور منقوشاً في الصدور . أرادوا أن يكون دستورهم هو ضميرهم . . وهذا أبلغ لأنه جعل الدستور الإنجليزي دستور القلوب وقانون الضمير وهذا الدستور وهو غير مكتوب أقوى من ألف دستور مكتوب اليوم في دول لا يتقيد أصحاب الأمر فيها بأى قانون أو دستور مكتوب أو غير مكتوب .

وأول دولة في عالمنا الراهن ، دستورها صفحة واحدة ، تناقش رجال التحرير الأمريكيون فيها وكتبه بيده رجل واحد مؤمن بوطنه وبالحرية ، رجل موهوب القلب والعقل هو توماس جيفرسون ، ولا نجد في هذا الدستور الذى كتبه توماس جيفرسون ووافق عليه أحرار الولايات المتحدة في ٤ يوليو ١٧٧٦ لا نجد فيه مادة ولا معنى ولا فكرة إلا وهي في القرآن الكريم والحديث الشريف على أبلغ صورة وأبين منطق ، بل عندنا في قرآننا مايفضلها ألف مرة ، ولكن قول الله سبحانه حق علينا : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ وإليك السطور الأولى من دستور الولايات المتحدة أوردتها عليك وأنا واثق أنك سترى أن أبلغ منها وأصدق وأشمل ورد في قرآنك الذى بين يديك . قرآنك الذى لا تكاد تقرأه وإذا قرأته فما أقل ماتعيه :

إن كل البشر قد خلقوا سواسية وإن خالقهم أولا هم حقوقاً معينة لامراء فيها ، وإن بين هذه الحقوق « الحياة » و « الحرية » والسعى إلى السعادة ، وإنه من أجل صون هذه الحقوق تنشأ الحكومات « بين البشر » مستمدة سلطاتها العادلة من قبول المحكومين . وفي نهاية إعلان الدستور تقرأ هذه الجملة البديعة « ولتكن هذه أمة من الناس وبالناس وللناس . . . فهل في هذا بالنسبة لأمة الإسلام جديد ؟ .

إنه لولا أن يطول هذا المبحث ويتجاوز صبر القارئ لأنتيت لك من آيات القرآن ودرر الحديث مايدلك على أن الله فضلنا بخير مافضل به أمة من الأمم في مبادئ العدل والشورى والتقى ومكارم الأخلاق وكل مايصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولو كنا أهلاً للفضل لكننا أهلاً للسعادة التى نطلبها دون أن نجدها .

إلى جانب ذلك كله لدينا دستور كتبه رسول الله ﷺ أو أملى نصه بتعبير أدق ، بعد تشاور مع المسلمين ، دستور بين فيه طبيعة أمة الإسلام وحقيقة تكوينها والقواعد السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى تقوم عليها وحدتها ويستقيم عليها أمرها . .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

ثم أتى بنص الكتاب كما سنأتى به فيما بعد بتفصيل شاف بإذن الله . .
وذكره - أى الدستور - أبو عبيد القاسم بن سلام بروايتين موجزتين بعض الشيء ، الأولى عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن ابن شهاب الزهري . والثانية عن حجاج بن أبى جريح - وأبو عبيد (١٤٥ - ٢٢٤ هـ / ٧٧١ - ٨٣٩ م) يعتبر من أوثق رجال الحديث ، وهو من جيل المحدثين العظام الذين جددوا شباب دراسات الفقه والأصول من منتصف القرن الهجرى الثانى إلى منتصف الثالث ، وهو صنو أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ومحمد بن إدريس الشافعى ، وهو لا يورد شيئاً إلا عن ثقة وأسانيد متينة . وقد أورد معظم نص هذه الوثيقة . . ابن كثير فى تاريخه ، وهو يسمى عندهم جميعاً « الكتاب » أو الصحيفة . .

أما سبب كتابة هذا الكتاب أو هذه الصحيفة أو الدستور ، فهو أن رسول الله ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة هاجر هو ومن سبقه وصاحبه ولحق به

على بيعة شفوية غير مكتوبة ، وهذه البيعة أو العقد أو العهد اتفاق بين محمد ومن دعوه إلى الهجرة إلى بلدهم من رجال الأوس والخزرج ، وهى لا تضم تفاصيل كثيرة بل هى تنص على أن ينتقل الرسول إلى المدينة هو وأصحابه ليعيشوا مع من أسلم من أهل المدينة أحراراً يمارسون شعائر دينهم ويعملون على نشر الإسلام ، وفى مقابل ذلك يتعهد أولئك النفر من أهل المدينة بحماية محمد ودينه وأصحابه واتباع شريعة الإسلام . ويلتزمون بالطاعة لرسول الله فى كل مايتعلق بأحكام الإسلام . .

ولم يكدهذا العقد يتم ويشرع المسلمون فى الهجرة حتى أنزلت آية الإذن للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم (أى المهاجرين) فى القتال :

﴿ أَذْنٌ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبَنِيَّ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ . (الحج : الآيات ٣٩ - ٤١) .

وهذه الآيات كما ترى تأذن للمهاجرين الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم فى أن يقاتلوا ظالمهم ، ولكن الآية لم تقل شيئا بشأن أهل المدينة أنفسهم فى حالة القتال ، ووعد الله بالنصر أتى للمهاجرين وحدهم دون غيرهم . ثم تبرر الآيات القتال فى سبيل الدين وتقول : إنه لولا ذلك لهدمت الأديرة التى يتعبد فيها الصالحون وتخربت كنائس النصارى وبيع اليهود ومساجد المسلمين ، وهى المواضع التى يذكر فيها اسم الله كثيرا . . .

ثم تقول الآيات ، إنه عندما يمكن الله لعباده هؤلاء فى الأرض ، فإن عليهم أن يقيموا الصلوات : فى مساجدهم التى سيبونها ويؤتوا الزكاة وقيموا

الخير ويدعوا إليه وينصروه وينها عما ينكره الدين والخلق الكريم . .

والآن استقر محمد وأصحابه في المدينة مع إخوانهم من أهل البلد الذين أسلموا وحملوا لقب الأنصار لأنهم نصروا دين الله تعالى . ومنهم معاً تكونت أمة الإسلام ، وأخذت آيات القرآن تنزل ببقية الأحكام وقواعد الشرع ومكارم الأخلاق ، وكل هذه تنظيمات ينبغى أن تطبق في أمة يقوم أمرها على ذلك الدين الجديد .

فلا بد إذن من أن تنشأ الأمة بصورة واضحة ، ولا بد أن يحدد تكوينها وشخصيتها وتبين حقوق أفرادها والتزاماتهم ونوع علاقاتهم بمن يسكنون معهم في المدينة ممن لم يدخل في الإسلام ، ومن تدين بدين آخر غير الإسلام وغالبيتهم يهود المدينة . ثم إن الله قد مكن للمؤمنين في الأرض فكيف ينفذون ما أمرهم الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ .

ثم إن المغازي والسرايا بدأت في أثناء ذلك ، ففي رمضان من السنة الأولى للهجرة أى بعد الهجرة بستة شهور ، وقبل تمام المسجد أرسل الرسول أولى سراياه ، وكانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب ، وهي سرية سيف البحر أى شاطئه وهدفها استطلاع المساحة الواقعة بين المدينة وساحل البحر الأحمر حيث يمر طريق التجارة المكية ، وفي رمضان من نفس السنة قام عبيدة بن الحارث - وهو المهاجر الوحيد الذى كان أكبر من رسول الله سناً - بسرية رابع لنفس الغرض . .

كذلك اتصلت هجرة الناس من مكة إلى المدينة ، ودخل في الإسلام رجال من القبائل خارج المدينة ، وبهذا كله تغير الموقف ، وأصبحت بيعة العقبة الثانية في حاجة إلى إعادة نظر أو إعادة صياغة كما نقول . خاصة أن محمداً تجلى إلى جانب نبوته وهده وفضائله الكبرى عن قائد رجال ومنظم ورئيس بالغ الحكمة حسن العشرة يفتن الناس بعقله وحكمته وتواضعه وزهده مع البساطة التامة

والإنسانية الرفيعة ، فتدافع الناس في الإسلام على يديه تدافعا ، وهذا بدوره أثار غيرة وحسداً وخوفاً عند نفر من زعماء أهل المدينة ممن أحسوا أن سراج محمد المنير يضعهم في الظل بل الظلام ، ومنهم من صارع بعداوته وكراهته وبعضهم الآخر تظاهر بالإسلام ومضى يدس لمحمد والمسلمين . .

هذا إلى أن اليهود ، وخاصة وحداتهم الثلاث الكبرى . . بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة (وكان هناك يهود غيرهم كثيرون) أحسوا خطر محمد والإسلام عليهم ، فهذا الرسول فعلاً أتى بالحق الذي يعلمونه في كتبهم ، وهذه آيات سورة البقرة سنالم القرآن . . تتوالى مبينة لهم أن ماجاء به محمد هو الحق ولا حق غيره ، ولكنه ليس من بنى إسرائيل وليس من الأسباط بل هو عربى من أحفاد إسماعيل وهذا عندهم غير مصدق ولا مقبول ، فأنكروا الإسلام إنكاراً شديداً ، وبدت البغضاء فى وجوههم :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مَّنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . (البقرة : الآية ١٠٩) .

وإذن فقد تغير الموقف كله . والأمة الآن فى حاجة إلى ضم صفوفها وإبراز شخصيتها لكي تستطيع مواصلة طريقها وسط العواصف الهوج التى كانت تثار حولها . .

لذلك جعل الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه ، ويشاورهم فى الأمر ، يسمع منهم ويقول لهم ويتبادلون الرأى ، وكلما انتهوا إلى شىء يرضون عنه نادى رسول الله ﷺ علياً بن أبى طالب وأملى عليه ما اتفق رأيهم عليه ، وهكذا تكون نص الكتاب أو الصحيفة أو الدستور الذى نتحدث عنه . .

وقد درس غيرنا هذه الوثيقة فى الشرق والغرب على السواء ، درسها محمد حميد الله وكتب عنها ، وكتب عنها روبرت برترام سارجانت الأستاذ بجامعة

كيمبريدج ، وعقدنا معاً ندوة بحث بشأنها في جامعة الكويت . .

وتبين لى في أثناء ذلك أن الوثيقة مشار إليها مرة بعد أخرى في القرآن الكريم وأشار إليها رسول الله واستند إلى بعض نصوصها في بعض الأحكام والمناسبات ووجدت ابن سعد يشير إليها في الطبقات ، وابن حنبل في مسنده في مواضع شتى والبخارى في صحيحه والدارمى وابن ماجه وأبو داود في سننهم ، والبلاذرى في أنساب الأشراف وغير ذلك كثير . .

وكلما قرأت هذه الصحيفة تبين لى أننى أمام وثيقة سياسية ذات قدر عظيم ، وأن أصحابنا أهل الفقه كان ينبغي أن يولوها عناية كبرى ويعلموا أن أمامهم هنا خطأ سياسياً تنظيمياً كان يمكنهم أن يتخذوه أساساً لتفكير سياسى إسلامى سليم يصحح مسار الأمة كلها إذا هم أولوه من العناية مألوا أحاديث أخرى تتصل بموضوعات من العبادات أو المعاملات ، والجواب أن نصها الكامل لم يصل إليهم بالطرق التى كان أهل الحديث يشترطونها لقبول الأحاديث وهى طرق الإسناد بأنواعه المختلفة . .

ولكن كيف وصل النص الكامل لهذه الوثيقة إلى محمد بن إسحاق بينما وصلت إلى غيره من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد في صور مختصرة ، أو مجرد مقتبسات منها أو إشارات إليها ، وهذا هو السبب فى أنهم لم يقدروها حق قدرها ولم تتكشف لهم حقائقها التى سنبينها فى هذا البحث . .

وسألت نفسى : ولكن كيف استوردوا عنها وهى أمامهم فى سيرة ابن إسحاق ، وكانت هذه السيرة فى يد كل عالم مسلم إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى ، ثم اختفت إذ حلت محلها سيرة ابن هشام ، فلم تبق منها إلا نسخ قليلة لم نعر على واحدة كاملة منها إلى الآن ، وبقيت لدينا منها فقرات ، ونقول فى كتب شتى ذلك أن محمداً بن إسحاق بن يسار المطلبى صاحب السيرة كان

على خلاف مع فقهاء عصره وخاصة مالك بن أنس ، فقد كان مالك أكبر شيوخ الحديث حتى كان يسمى أمير المؤمنين في الحديث .

وكان تلاميذه يتعصبون له تعصباً شديداً - شأن التلاميذ مع شيوخهم في تلك العصور - وعندما سمع مالك أن ابن إسحاق يقول أنا « بيطار السيرة » . . . أى أنه طبيها وأستاذها الأكبر أنكر مالك ذلك ، ومازال بابن إسحاق حتى أخرجه من المدينة ، فمضى إلى بغداد واتصل بالخلفاء وفرغ من سيرته في بغداد واشتهر أمرها بين الناس .

وكان محمد بن إسحاق هاشمي الميول . كان يحب أهل البيت ، وكان شديد الاتصال بكبارهم وخاصة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب والإمام جعفر الصادق ، ولهذا سمي بمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبى . .

ولم تكن هذه الوثيقة قد كتبت مرة واحدة ، بل كتبت على أجزاء ، كانت المشاورات بين محمد وأصحابه متصلة ، كلما تطورت الأحوال وتوالت الأحداث وتشاور الرسول مع أصحابه وقرروا ما يرونه - وأثبتته على بن أبي طالب في صحف أو وورقات واحتفظ بها في قراب سيفه ، وكانت تلك ومازالت وسيلة حفظ الوثائق الهامة عند العرب : يضعونها في قراب السيف أو الخنجر أو في كيس جلد معلق فيه . .

وهذه الأوراق ورثها من أبناء علي بن أبي طالب ابنه الحسن ثم حفيده الحسن بن الحسن ، ثم ابن هذا عبد الله وانتسخ الإمام جعفر الصادق لنفسه نسخة منها ، ولسنا نعرف إن كانت النسخة التي أثبتها ابن إسحاق في سيرته ، ثم ابن هشام في إعادة صياغته للسيرة هي نسخة عبد الله بن الحسن بن الحسن أو نسخة جعفر الصادق . .

أما أهل الحديث فلم يصل إليهم النص الكامل ، إنما وصلتهم منها صور موجزة أكبرها مانجده في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ونظراً لموقف أهل الحديث عامة من ابن إسحاق فإن أحداً منهم لم ينقل عنه النص كاملاً واكتفى كل منهم بما وصل إليه ، ثم إن منهجهم في الرواية كان يعتمد أساساً على السند أو سلسلة الرواة .

ونص ابن إسحاق ليس له سند ، فهو من إملاء الرسول ﷺ إلى علي بن أبي طالب ، حقاً إن علياً بن أبي طالب قرأ أنه لم يكتب عن رسول الله إلا بعض القرآن « وما في هذه الصحيفة » كما قال . إلا أن هذا لم يكف أهل الحديث المدققين المحققين ، فظلت عندهم قطعاً وإشارات لا يتكون منها نص متصل يصلح أن يكون أساساً لدراسة شاملة أو أساساً لاستخراج أحكام . وكانت خسارتنا بذلك خسارة كبرى . .

لا قيام لأمة صالحة بغير قانون

بدأ رسول الله « مشلوراته مع رجال الأمة لوضع « الصحيفة » أو « القانون الأساسى » لأمة الإسلام أثناء بناء المسجد ، أى بعد شهرين أو ثلاثة من استقراره فى المدينة . وكانت السرايا الأولى قد خرجت ، فبعد سريتى « سيف البحر » و « رابغ » اللتين ذكرناهما . خرجت سرية « الحزار » بقيادة سعد بن أبى وقاص فى ذى القعدة سنة ١ للهجرة - مايو ٦٢٣ - وهى سرية بعيدة المدى ، وصلت إلى منتصف المسافة بين المدينة ومكة تقريباً ، لأن رسول الله كان يسير فى عمله على خطة دقيقة محكمة ، فقد سيطرت المدينة بسريتى « سيف البحر » و « رابغ » على طريق التجارة المكية بين المدينة والبحر .

وجاءت سرية « الحزار » فبسطت سلطان المدينة على قبائل كبيرة كانت فى مضى إما فى حلف قريش وإما فى خوف منها ، مثل غفار وجهينة وخزاعة ، فأصبحت هذه القبائل ومنازلها الواسعة غير آمنة بالنسبة لقريش ، وبعد ثلاثة أشهر من « الحزار » سيخرج محمد ﷺ بنفسه بغزوة بواط (بضم الباء) وحالف كل القبائل التى كانت تسكن على طريق التجارة الفرعى الذى يمر بإقليمين من أغنى أقاليم الحجاز وهما العرج (بفتح العين وسكون الراء) والفرع (بضم الفاء والراء) (صفر سنة ٢ للهجرة - أغسطس ٦٢٣ م) .

ومعنى ذلك أن جماعة الإسلام فى المدينة كانت تخطو خطوات سريعة واسعة نحو القوة الدينية والاجتماعية والسياسية ، فهل يظل الأنصار بعيدين عن ذلك كله ، وزعماؤهم فيما نعلم كانوا رجالاً عظاماً على إخلاص بالغ للإسلام واستعداد عظيم للمشاركة فى بناء أمتهم ؟ . .

هل كان من الممكن أن يحدث هذا كله ورجال من أمثال أسعد بن زرارمة ومعاذ بن جبل ومعاذ بن الحارث وعبد الله بن رواحة وبشير بن سعد وأميمة بن النعمان بن بشير ورافع بن مالك بن العجلان وبشر بن البراء بن معرور ومعاذ بن عمرو بن الجموح وثابت بن الجزي وغيرهم من النقباء وشباب الأنصار ، هل كان من الممكن أن يظل هؤلاء جميعاً بعيدين عن تلك المعركة الكبرى والتطور الشامل مع مانعهم من ملكات وقدرات وإخلاص عظيم ؟ .

إن كل واحد من ذكرت وعشرات غيرهم سيكتبون صفحات بعد صفحات من أنصع ماعرف تاريخ البشر ، فكيف يظلون فى موقف المشاهدين ورسول الله بين أظهرهم يبنى أمة الإسلام ومجدها فى دأب وصبر يروعان النفس ؟ .

ولو أراد رسول الله ﷺ لأمرهم بالخروج فى المغازى وإنفاق النفس والمال ، ولو أمرهم لبادروا إلى تنفيذ ما طلب ، ولكنه كان كما رأينا يشعر شعوراً عميقاً بأنه يبنى أمة الإسلام ، وهو نبياها ورسولها وداع إلى الله بإذنه فيها وهو السراج المنير ، أى هو القدوة والأسوة ، فكل تصرف يتصرفه سيصبح قاعدة وأسوة ، وأمة الإسلام ليست كغيرها من الأمم ، إنها خير أمة أخرجت للناس ، وينبغى أن تظل كذلك .

وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن يبنى دولة ، لأن الدولة قوة سياسية تجرى الأمور فيها - بحسب مفهوم الجاهلية - أى ماقبل الإسلام - على رئيس يأمر وينهى ومرؤسين يطيعون ، على سادة يسوسون الناس كما يسوس الراعى

غنمه ، أى يتصرف فيها كما يريد ، إنما هو كان يبنى أمة على الإيمان والافتناع والشورى والتراضى والتساوى أو « السوية » كما قال أبو بكر ، وهو أكبر من تلقى درس الأسوة الحسنة من رسول الله ووعاه ، ولا عجب أنه الخليفة الوحيد فى تاريخ الإسلام منذ كان الإسلام ، الذى انتخب انتخاباً حراً فى اجتماع على مفتوح حضره من شاء من المسلمين ، وأبدى كل إنسان رأيه فيه حتى استقر الأمر لأبى بكر عن رضا واقتناع وطوعية من كل الناس .

* * *

هذا كان رسول الله دقيقاً جداً فى كل خطوة يخطوها ، فقد كان يعلم أن كل كلمة منه ستصبح سُنَّة أى طريقاً يتبعه الناس . كان يتحرى أن يكون تصرفه قائماً على الإسلام نابعاً من القرآن ، يقصد فيه أولاً إلى ضرب الأسوة الحسنة للناس .

ولقد ذكرنا أمثلة من ذلك فى حديثنا الماضى ، ونضيف إلى هذا شاهدين صغيرين . أولهما مقاله خادمه وصاحبه أنس بن مالك من أن رسول الله ﷺ لم يرفع عليه أو على أحد ممن حوله صوتاً ولا يداً ، بل كان دائماً رفيقاً بالناس متسامحاً - دون تفريط - ملتئماً لهم العذر حتى إذا أخطأوا .

ولقد سها بلال بن رباح ذات مرة عن أن يوقظ الرسول ﷺ لصلاة الفجر ، فلما كلمه الرسول فى ذلك فى رفق كان جواب بلال خشناً بعض الشيء ، قال : « أنام عيني الذى أنام عينك » فما رد الرسول عليه بكلمة ، بل أخذها على مأخذ الطيبة وحسن النية ، وابتسم وطلب إليه أن يعجل بالأذان .

والمثل الثانى ماحكته السيدة عائشة من أن رسول الله ﷺ لم يشته فى حياته طعاماً ، إنما كان شأنه أن يأكل ماحضر دون أى تكلف ، فإذا كان فى البيت لحم أكل اللحم ، وإن لم يكن فيه إلا خبز الشعير والخل والزيت أكل خبز الشعير بالزيت والخل ، وذلك حتى لا يشق على أهله . وهل تظن أن رسول الله لم يشته فى حياته طعاماً ؟ بلى ، كان يشتهيه ، فهو بشر فى كل مايتصل بالبشر ، ولكنه كان يضرب المثل ويقدم الأسوة الحسنة ، وكأنه ﷺ أراد أن يقول للرجال : لا تشقوا على أهل بيتكم ، وكونوا معهم على الحسنى : لا أمر ولا تكليف ولا مشقة ، بل يكون الرجل فى بيته القدوة فى الطيبة والتسامح والقناعة وحسن الخلق والعشرة .

وتلك هى الأسوة الحسنة .

فهل وعاما المسلمون ؟

وهل يذكر واحد من المسلمين أن رسول الله ﷺ لم يطلق امرأة فى حياته قط ، لقد أحل الله الطلاق ، وهذا هو القرآن ولكن الرسول لم يطلق مرة واحدة ، وتلك هى السنة فى تطبيق شريعة الإسلام على أحسن ما يكون التطبيق ، فهل أدرك المسلمون ذلك وطبقوه ؟ .

لقد كان رسول الله يعرف أن الطلاق ضرورة يتطلبها صلاح الكون ، ولهذا أحله الله ، وجاء رسول الله عند التطبيق فضرب لنا المثل الأعلى فى الصبر على متاعب الزوجية ، ولقد بلغ من غضبه يوماً أن اعتزل كل نسائه - دون طلاق - وأتاه عمر فطلب إليه أن يطلق نساءه كلهن ويتزوج غيرهن ، ولكن الرسول رفض وأمسك عليه نساءه حتى جاء أمر الله بإرجاء بعض نسائه اللاتى كن يغضبينه ، ففعل ولم يطلق منهن واحدة .

ولماذا لم يطلق الرسول ؟ لأنه كان يعرف أن الطلاق هدم للأسرة وإذلال للمرأة وتضييع للأولاد ، ومن ثم فلا ينبغي اللجوء إليه إلا إذا كان استمرار الزوجية على بغض وتنافر هدماً للأسرة وشقاء للزوجين وإفساداً للأولاد ؟ .
فهل تبع المسلمون هذه السنة ؟ .

افتح أى كتاب من كتب الفقه وتعجب من التيسيرات التى أباحها الفقهاء فى موضوع الطلاق حتى أصبح الزواج فى نظرهم متعة للرجل وحده ، فإذا لم يجد المتعة طلق وأذل الزوجة ، وشرذ الأولاد ، ولا بأس عليه فى ذلك مادام يؤدى نفقة الزوجة - وما أقلها وما أقصر مدتها - ومؤخر الصداق . تأمل معى ذلك تفهم لماذا لم تظل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس ، ولو أنها اتبعت أسوة الرسول فعلاً لكانت إلى أبد الدهر خير أمة أخرجت للناس .

* * *

لم تعد بيعة العقبة الثانية إذن كافية لتنظيم أمور الأمة التى كانت تتطور طورا سريعا ، وتسير خطوة خطوة نحو الغاية التى رسمها الله سبحانه لرسوله ، ومضى رسوله يسعى لتحقيقها على أحسن ما يكون التحقيق .

كان لابد من أساس تشريعى جديد يقوم على الشورى والتراضى والاعتناع ، ولا يقوم قط على الأمر والتسلط والتحكم ، فهذه أمة الإسلام وأمة الإنسان الحر الذى يشعر أنه عضو فى جماعة حرة خيرة يقوم أمرها على التراضى والتشاور والاعتناع ، وهدفها خدمة الجماعة كلها والتساوى فى الحقوق والواجبات بين أفرادها جميعا .

لهذا . . فعندما أحس الرسول أن أصحابه من أهل المدينة يريدون أن يشاركوا في ذلك العمل العظيم الذى بدأه وسار فيه ، شرع فى التشاور معهم ومع بقية أصحابه فى وضع أساس قانونى أو قل شرعى أو تشريعى لبناء الأمة الجديدة .

* * *

ثم إن النجاح الباهر الذى حققته أمة الإسلام فى الأمد القصير أثار الحسد والخوف والحقد فى قلوب الكثيرين من أهل المدينة الذين لم يتنبهوا أول الأمر إلى أهمية أمة الإسلام التى قامت فى بلدهم . . والتغيير البعيد المدى الذى كان لابد أن يحدثه قيام هذه الأمة فى تكوين مجتمع المدينة ونظامه ومسئوليات أهله .

فقد كان فى المدينة قبل مجيء الرسول وأصحابه ناس لهم زعامة ورياسة ومكانة . وكانوا يحسبون أن مجيء محمد وأصحابه لن يؤثر فى هذه الرياسة وتلك المكانة ، ومنهم من أسلم بشفتيه دون قلبه حاسباً أن الإسلام كلمة تقال وشرف يناله الإنسان دون أن يتحمل فى سبيله مشقة .

وبعضهم ظل على كفره أو على دينه السابق ظناً منه أن هذه جماعة صغيرة تلتف حول نبيها وتقوم بعباداتها وستظل صغيرة مقتصرة على أصحابها أبداً ، فإذا بهم يفاجأون أن هذه الدعوة ليست كلمة تقال أو رتبة جاه تنال دون مقابل من تعب وجهد وتضحية ، إنما هى دعوة عامة لتغيير نظام المدينة كلها أولاً ثم الحجاز كله بعد ذلك ، وهامى ذى أعداد المسلمين تتزايد يوماً بعد يوم ، ويظهر من شباب أهل المدينة ورجالها الذين كانوا من قبل أغماراً . . رجال جدد صاغهم الإسلام صياغة جديدة ، فأصبحوا مجاهدين وقادة وأصحاب رأى ، وهم ملتفون حول نبيهم يتلقون منه آيات القرآن ويعملون بها ويتبعون سنته المثلى .

فأخذت الغيرة تاكل قلوبهم وشملهم الخوف ، ومنهم من وجد السلامة - أو أحس أنه وجدها - في التظاهر بالإسلام والتقرب من رسول الله . ومنهم من استمسك - مع الإسلام أو بدونه - بأهداب زعامته المولية . فظهرت معارضة قوية وخطرة بعضها معلن وبعضها مستور . وبدأ هؤلاء جميعاً يهاجمون الأمة ويكيدون لها ولرسولها ، فكان لابد من حماية الأمة بتحديد معالمها وإظهار شخصيتها وبيان من منها ومن ليس منها ، ومن يحالفها أو يعاهدها أو يعاندها ومن يعادها . وكان لابد كذلك من بيان حقوق رجال الأمة - أفراداً وجماعات - وواجباتهم .

بعبارة واحدة نستعيرها من مفهومات عصرنا : كان لابد من إعلان قيام الأمة ووضع شريعته أو دستورها وتحديد الالتزامات المعنوية والمادية التي تتطلبها الدخول في الأمة حتى يدخل فيها من يريد الدخول على بينة . وحتى يعلم أنه بدخوله هذا يدخل في أمة وعهد وعقد ، بل يدخل في عصر جديد من حياته لا علاقة له بما مضى من عمره .

ولست أقول هذا على سبيل الإنشاء أو الاسترسال مع التأمل ، فهذا الذي نكتبه إنما هو تاريخ للإسلام جديد يقوم على منهج في البحث والاستقراء جديد . وقد سبق أن رأينا أن أمة الإسلام قد جرفت بها الحوادث من منتصف العصر الراشدي وحملت في تيار جاهلي لا يتفق مع طبيعة الإسلام وبناء أمته وغايات هذه الأمة ، فدخلنا في عصور « الخلافة - الملك » التي حولت أمة الإسلام إلى دولة دنيوية من طراز الدول السابقة على الإسلام ، أي من طراز الدول التي جاء الإسلام لكي يزيلها ويحرر الناس من ربقتها ، ويدخلها في عصر الأمة الحرة المؤمنة التي تقوم على الإنسان الحر الكريم المحترم الذي يقوم بالتزاماته نحو الأمة ، لأنه إنسان مؤمن حر كريم محترم لا رعية لملك مستند أو طاغية غاشم .

ومن غريب الأمر أن الفكر السياسى الإسلامى كله انحصر فى موضوع « الخلافة الملكية » هذا . من يستحقها ومن لا يستحقها . . وكيف يستطيع « الخليفة - الملك » أن يكون رءوفاً رحيماً برعيته ، وما الذى يصلح السلطان وما الذى يفسده وما إلى هذا من المباحث الفرعية البعيدة جداً عن طبيعة أمة الإسلام وغاياتها .

ونحن لا نريد بهذا أن نقول : إن الخلافة ليست من الإسلام ، أو أن الملك يتعارض مع الإسلام ، فإن الخلافة أو الملك أو السلطنة وما إليها صور شكلية لممارسة تنظيم أمور الأمة ، فالإسلام لا ينكر الخلافة ولا ينكر الملك أو الإمارة ، فهذه كلها أشكال تنظيمية إذا ارتضتها الأمة واختارتها لم يكن بها بأس ، ولكنها تظل كما قلت تنظيمات شكلية . . للأمة أن تصوغها كيف تشاء .

أما المهم فهو الأمة الحرة الكريمة المؤمنة المتحدة فى المبادئ والغايات الملتفة حول القرآن ، المؤمنة بالإسلام إيماناً صحيحاً ، ولا أقول هنا « الملتفة حول راية القرآن » أو السائرة تحت ظلال القرآن ، فهذه كلها تعبيرات بلاغية ووهمية ، لأن الناس قد يسировون وراء راية لا يفهمون من أمرها شيئاً ، وقد يستظلون بالقرآن دون أن يفهموه أو يعملوا به ، إذ أن المهم والأساس هنا هو أن نكون نحن القرآن نفسه ، أن نكون نحن السنة بنفسها وروحها .

أما أن يكون الإسلام مجرد راية نرفعها أو ظلال نسير تحتها فكلام لا معنى له ، بل هو تضليل واضح ، فالقرآن ليس راية والسنة ليست ظلالاً . إنما القرآن والسنة حياة ينبغى أن نعيشها فى عمق كما عاشها الرسول ﷺ وصحبه ، ولأنهم عاشوها فى عمق فقد استطاعوا أن ينشئوا للإنسانية كلها عصراً جديداً دخلت فيه أمم بعد أمم .

وكان من الممكن أن يظل هذا العصر الجديد جديداً كل يوم لو أننا عشنا القرآن والسنة حقاً ولم نجعل القرآن راية والسنة ظلالاً

ألا تذكر قول السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان خلقه القرآن ؟ فهذا هو الذى أريد أن أقوله .

ومحاول بعض قدامى المؤرخين أن يصوروا لنا أسباب نفاق المنافقين أو كراهة بعض أعداء الإسلام للإسلام فى أول عهده بالمدينة ، بالقول - مثلاً - بأن أهل المدينة كانوا ينظمون الخرز ليصنعوا منه تاجاً يتوجون به عبد الله بن أبى بن سلول ، فلما جاء محمد إلى المدينة بالإسلام وقف ذلك كله ، فحقد عبد الله بن أبى بن سلول على الإسلام والرسول والمسلمين ، وهذا كلام ساذج .

وعبد الله بن أبى بن سلول كان قبل الإسلام أقل من ذلك بكثير ، ثم : منذ متى كانت العرب فى الحجاز تتوج على نفسها رجالاً ؟ لقد فكر فى ذلك مرة عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وكان قد تنصر ، وداخل رجال الروم فى أن يكون فى مكة بمنزلة أمراء الغساسنة ، فما كاد يعود إلى مكة ويسمع الناس بدعوته حتى قام عليه أهل قبيلته نفسها برياسة ابن عمه الأسود بن المطلب ، فهرب عثمان إلى الشام ، وحاول إيذاء القرشيين ، فما زالوا به حتى سجنه رجال دولة الروم ومات فى السجن .

والحقيقة أن نجاح دعوة الإسلام ، وتوفيق محمد العظيم فى بناء الأمة وقيادتها أثار الغيرة والحسد فى قلوب من كانت لهم رياسة ومكانة يدلون بها على الناس ، فلما أزالها الإسلام حقدوا عليه وسعوا فى الإضرار به وبيجاعته ، وكان هذا من العوامل التى جعلت محمد ﷺ يجتهد فى التشاور مع أهل أمته فى وضع قانونها لحمايتها وإظهار شخصيتها والنص على أن هذه هى أمة الإنسان المؤمن الحر الكريم الذى يعرف ماله وماعليه ، فيأخذ ماله ولا زيادة ، ويؤدى ماعليه ، وإذا أراد الزيادة زاد ، وكل شىء بثوابه وحسابه فى شرعة الإسلام .

وكان أشد الناس خوفاً من نجاح أمة الإسلام هم يهود المدينة ، فقد كانوا قبل مجىء الرسول يزهون على أهل المدينة بأنهم أهل كتاب ، وأنهم أمة الله ،

وأن الله ناصرهم بدينهم لأنهم أمته ، وأن النصر سيأتيهم كما هو ثابت في شرعتهم على يد نبي يبعث كما زعموا من أصلابهم ومن أسباطهم تتحقق على يديه البشرى بنصر أمة الله على من عداها .

وكانوا إلى جانب ذلك يكتبون ويقرأون ويبارسون أعمالاً رئيسية مثل الزراعة والصناعة ، وجماعة منهم بالذات هم بنو قينقاع احتكروا الحدادة والصباغة ، وأهم عمل في الحدادة هو صناعة السلاح من سيوف ودروع ، وهذا أساس عظيم من أسس القوة . ولهذا فإن اسمهم قين (وهو الحداد) والقيون : أى أهل الحدادة .

وأمر هؤلاء اليهود عجب . فنحن نقرأ الكثير عن تمسكهم بعقيدتهم واعتزازهم بها ، ومع ذلك فلا نجدهم قد أقاموا لأنفسهم في المدينة بيعة أى معبداً ، ولا اتخذوا كاهناً ولا كان فيهم رئيس دينى مشهود له بالعلم والجاه في قومه .

والذى نعلمه أن كل جماعة يهودية في الدنيا أيا كان حجمها لابد لها من بيعة فيها تابوت أى خزانة كتب العقيدة وذخائر البيعة أو الكنيس ، ولابد لها من ربن أوربان أو ربي (بفتح الراء وكسرها) وهو الكاهن .

ولكن يهود المدينة لم يكن لديهم من ذلك كله شئ . إنما هم يوصفون بأنهم يهود وأهل كتاب فحسب . وعندما استولى المسلمون على ديارهم وأراضهم لم يجدوا فيها بيعة ولا مصلً ولا كتباً دينية . وقد أتانا السمهودى ببيان شاف عن ديارهم وأطامهم ولكنه لم يذكر لهم كنيساً واحداً ، وأتانا البلاذرى فى أنساب الأشراف ببيان « أسماء عظماء يهود » فلا نجد فيهم كاهناً ، إنما يوصف بعض رجالهم بأنهم كانوا من أحبارهم .

ويهود المدينة فيما يقال كانوا أول الأمر أصحاب السهل الذى نشأت فيه المدينة ، ومن كلام السمهودى نفهم أنه عندما جاء الإسلام كان بنو النضير

وبنو قريظة وبنو قينقاع يملكون جنوب شرقي السهل كله ، وكانت أراضيهم أخصب أراضي المدينة وأوفرها زروعا ، وكانوا يملكون عند الهجرة ٥٩ أطمًا (بضم الهمزة والطاء وهو الحصن) في حين أن بقية قبائل المدينة مابين أوس وخزرج كانوا لا يملكون إلا ٣٠ أطمًا . وربما دلت كثرة حصونهم على أنهم كانوا أضعف من الأوس والخزرج عسكرياً ، ولهذا احتاجوا إلى الأطم الكثرة .

وعندما نزل الأوس والخزرج سهل المدينة نزلوا في حلف اليهود وجوارهم ، لأن اليهود كانوا أول من عمر السهل . وكانت جماعاتهم الثلاث الكبرى يهودية أصلاً ، هاجرت إلى الحجاز من فلسطين . ولكن بطونا من القبائل العربية أخذت اليهودية ، ويذكر السمهودي من هؤلاء بني مرثد وبني معاوية وبني جذماء ، وبني نجيشة وبني زعورا وبني ثعلبة .

ولكن هذه البطون لم تكن أوسية أو خزرجية من ناحية الأصل ، فبنو مرثد ينتسبون إلى بلي بن إلحاف بن قضاة ، وبنو معاوية كانوا بطناً من سليم بن منصور ، أما بنو جذماء وبنو النجيش فكانوا من مهاجرة عرب اليمن ، وبنو زعورا وبنو ثعلبة كانوا بطنين من غسان من عرب الشام .

وكانت هناك بطون أخرى من اليهود داخلية في حلف المجموعات اليهودية الثلاث الكبرى مثل بني هلال . وهم عرب حلفاء لبني قريظة . وعندما نزل الأوس والخزرج السهل كانوا ضعافاً فدخلوا في حلف اليهود ، ثم تكاثروا واستقروا مع الزمن .

وكان بنو ثعلبة أول الأمر أقوى قبائل اليهود ، ومنهم كان الفطيون الذي يقال إنه أقر الأوس والخزرج في سهل المدينة على أن يبارس معهم تقليداً عرفه يهود الشام وهو تقليد افتضاخ كل عروس ، فلما استقوى العرب رفضوا ذلك وتزعمهم فيه مالك بن العجلان من بني عوف بن الخزرج ، وهو الذي حارب

بنى ثعلبة وقتل الفطيون زعيمهم ، وكانت تلك بداية استقلال الأوس والخزرج عن اليهود ثم سيادتهم على السهل ودخول اليهود في حلفهم ، وأخذت بعض بطون اليهود تدخل في حلف القبائل العربية وترتد عن اليهودية . .

وأهم هؤلاء بنو زعوراء الذين دخلوا في بنى عبد الأشهل ، وأصبحوا من زعمائهم ، ومن بينهم نبغ سمالك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل وهو الذى قاد الأوس وكسب لهم النصر على الخزرج في معركة بعث ، وابنه هو الفارس حضير بن سمالك الذى يلقب لفروسيته بحضير الكتائب ، وابنه الصحابى الفارس المعروف أسيد بن الحضير الذى يصفه ابن حزم فى الجمهرة بأنه « بدرى عقيبى نقيب » وتلك أعلى مراتب المسلمين جميعاً : أن يكون ممن شهدوا بدرًا والعقبة الثانية وكان واحداً من الاثنى عشر نقيباً .

ومهما بحثنا فإننا لانتبين أن اليهود كانوا قوة دينية كبيرة فى المدينة عندما بدأ محمد بنى الأمة ، ولكنهم كانوا قوة عسكرية ، فبنو قينقاع مثلاً كانوا حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وكان قبل الإسلام سيد بنى سالم الحبل . وكانت قوة بنى قينقاع تقدر بسبعائة محارب منهم ثلاثائة دارع . .

ولكن أولئك اليهود أخذوا يتحولون إلى قوة معارضة دينية خطيرة عندما قامت أمة الإسلام ، كأننا أشعرهم قيام الإسلام بأنهم يهود فتصدوا له فى عناد شديد ، ولم تكن العداوة راجعة إلى الدين ، فقد رأينا أنهم من الناحية الدينية لم يكونوا بأهل عقيدة متمسكين ، وإلا فأين بيعهم وأخبارهم وكتبهم ؟ ولكن العداوة كانت عصبية ، أى أنه عز عليهم أن يجيء النبى البشير من العرب فأنكروا إلا نفراً قليلاً ممن عصمهم الله من أمثال الحصين بن سلام (بدون تشديد اللام) من بنى قينقاع ، وقد أسلم وأصبح اسمه عبد الله بن سلام وحسن إسلامه ، وهناك يهود أسلموا نفاقاً وكانوا شرا على الإسلام مثل مالك بن أبى قوقل الذى

تعوذ بالإسلام (وكان ينقل أخبار النبي ﷺ إلى يهود) كما يقول البلاذرى ،
ورافع بن حريمة الذى يعد من كبار المنافقين .

وقد أخذت عداوة اليهود للإسلام وأهله تزداد بزيادة قوة الأمة . . ويذكر
الواقدي أن اليهود عاهدوا محمداً ﷺ على ألا يظاهروا عليه عدواً ، ويذهب ابن
إسحاق إلى أن بنى قريظة عاهدوا محمداً على أن يدعوه وشأنه دون أن يدخلوا
الإسلام .

وكان محمد لا يشك فى أنهم سيكونون أول الناس تأييداً له ، لأن القرآن
يؤكد له أنه جاء مصداقاً لما فى كتبهم ، وهذا حق . . فلما رأى موقفهم هذا تركهم
وشأنهم مؤمناً بأنهم سيتغلبون على عصبيتهم وسيعترفون بالحق ويفيئون إلى أمر
الله ولكنهم ازدادوا عناداً واستقروا بالمنافقين فأصبحوا خطراً على الأمة .

لهذا كان لابد من تحصين الأمة بإظهار شخصيتها وإعلان قيامها ووضع
قانونها حتى يعرف المسلمون من هم وأين هم وماذا لهم وماذا عليهم ، ويشعروا
بقوتهم ويسيروا فى طريقهم على هدى من أمرهم أمة واحدة متآخية متحابية مؤمنة
حرة . . رسالتها إدخال الناس جميعاً فى الإسلام .

تلك هى الظروف التى جعلت محمداً ﷺ يشاور أصحابه لوضع دستور
الجماعة ، وقد رأى رسول الله أن يكون الدستور مكتوباً حتى يلتزم به أصحابه ،
وسنعرضه فقرة فقرة . . ونناقشه ، وسنرى من دلائل أصالته مايدحض حجة أى
مكابى ، وإذا قلنا إن للمحدثين القدامى عذرهم لأن نص الصحيفة لم يصل
إليهم كاملاً عن طريق السند الصحيح الذى يشترطونه ، فما عذر المؤرخ
المحدث وهو يجد نص الصحيفة كاملاً بين يديه ، ويرى دلائل أصالته من كل

ملمة فيه ؟ وماعذره بعد أن بينا له الظروف التي أحاطت بأمة الإسلام الناشئة ،
وهي ظروف عسيرة استعدت جمع الأمة في وحدة واحدة ذات نظام واحد لتواجه
خصومها مواجهة فعالة وهي في عنفوان نهوضها ؟

ولا أجد ماأؤيد به ما أريد قوله إلا أن أورد فيما يلي بضع آيات من سورة
البقرة نزلت قبيل كتابة الصحيفة وأثناء كتابتها ، وهي تؤيد ماقلناه وليس بعد
القرآن عندنا دليل ، وسنرى أن الصحيفة كتبت على مراحل نعتقد نحن أنها
أربع ، ويرى بعض الباحثين أنها أكثر من ذلك ، وهذه التقسيمات كلها - أيا
كان عددها - تزيد من قيمة الصحيفة وتؤيد أصالتها ، فإنها - بصفتها دستور
الأمة - كانت قانوناً مفتوحاً ، كلما تغيرت واستدعى الأمر زيادة مواد جديدة
تشاور المسلمون وكتبوا مااتفقوا عليه واعتبروه جزءاً من الصحيفة واستمع إلى
قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ . حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ . (البقرة : الآيتان ٦ - ٩) .

وهذه الآيات ترينا كيف أنه كان من الضروري إظهار وحدة الأمة وإعلان
شخصيتها حتى يتحدد الموقف بينها وبين أعدائها الذين يندسون بين صفوفهم
و « يخادعون الله والذين آمنوا » .

ثم اقرأ الآيات التالية من سورة البقرة أيضاً لكي ترى كيف كان اليهود
يقولون إنهم ينتظرون البشير ، فلما جاء أنكروه : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ
نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ .
صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . (البقرة : الآيتان ١٧ - ١٨) .

ثم تأمل هذه الآيات التى تخاطب المؤمنين الصادقين :

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْبِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . (البقرة : الآيات ٢٥-٢٨) .

فالصحيفة كتبت للذين أمر الله رسوله أن يبشرهم أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . الذين يعلمون أنه الحق من ربهم ، وقد كتبت كذلك لتحمي الأمة من الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل .

وهى من هذه الناحية - تاريخياً - الحد الفاصل بين من آمن ومن لم يؤمن ، بين من يصلح ومن يفسد ، بين أمة الله وأعداء أمة الله .

* * *

تقوم الأمة على الإيمان والجهاد والأخلاقيات

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ . (سورة الحجرات : آية ١٥) .

هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قریش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة من دون الناس .

الآن نصل إلى نص الصحيفة أو الكتاب أو مانسميه بدستور أمة المدينة الذى انتهى رسول الله صلوات الله عليه إلى إقرار نصه بعد الشورى وتبادل الرأى مع أصحابه فى كل جزء ، بل فى كل سطر أو مادة منه ، ليكون بعد ذلك أساس التنظيم والعمل والتعامل فى أمة المدينة أى أمة الإسلام .

حقاً إن القرآن الكريم هو أساس ذلك كله فى أمة الإسلام ، لكن هذه الصحيفة نابعة منه أو هى تطبيق لبعض أحكامه فيما يتصل ببناء الأمة وطبيعة تكوينها وحقوق الناس فيها والتزاماتهم حيالها .

ثم إن القرآن الكريم كان يتنزل وتتكامل الكثير من أحكامه شيئاً فشيئاً ، وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام وما يليها إلى سورة الحج وهى الثانية والعشرون ظلت تنزل آياتها طوال العصر المدنى كله ، وهذه السور الاثنتان والعشرون تتضمن معظم آيات الأحكام .

وفى أثناء ذلك كانت أمة الإسلام تنمو ويدخل الناس فيها فوجاً بعد فوج ، وكانت مساحتها تتسع يوماً بعد يوم نتيجة للدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والسرايا والمغازي ، وذلك كله اقتضى تنظيمًا وتشريعاً قائمًا على القرآن ونابعاً من روحه وموضحاً بالسنة وهى الأسوة الحسنة التى ظل الرسول الكريم يضرها لمن حوله وللأجيال من بعده . وهذه الصحيفة سنة لأنها إقرار من الرسول لما اجتمع عليه رأيه بعد الشورى مع أصحابه ، ثم إن نصها من إملائه ﷺ على كاتبه الأمين العدل إذ ذاك ، وهو على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وسنرى من نص الصحيفة وصياغتها أن الرسول أقر النص باللفظ والصيغة التى انتهوا إليها حتى تكون المعانى واضحة لأصحابه ، فيكون ذلك أعون لهم على فهمها والالتزام بكل كلمة فيها .

وسنرى كذلك أن كل حكم من أحكامها نابع من آية قرآنية أو مؤيد بحديث من لفظ الرسول نفسه .

وكتابة الصحيفة نفسها تنفيذ أو تطبيق لأمر قرآنى صريح بالكتابة . ومن الغريب أننا نتحدث حديثاً طويلاً عن آيات القراءة مثل أول سورة العلق وسورة « ن والقلم وما يسطرون » ونسى آيات الكتابة وهى كثيرة وأساسية وملزمة للناس ، وأطول هذه الآيات وأكثرها تفصيلاً هما الآيتان ٢٨١ و ٢٨٢ من سورة البقرة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ . وغريب من الأمر أن المفسرين قصرُوا أحكامها على الدين وحده ، أو الدين المادى وحده ، مع أن الدين معنوى أهم وأعظم ، وإيماننا بالله سبحانه وتعالى دين معنوى وميثاق ينبغى التدقيق فيه والوفاء به بأكثر من التدقيق فى الوفاء بدين المال .

جاء في لسان العرب « والدين الحساب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ وقيل معناه مالك يوم الحساب . وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوى ، والدين الطاعة ، وقد دنته ودنت له أى أطعته . . . والجمع الأديان يقال : دان بذلك ديانة . . . والدين « الاسلام » أى أن الدين هو دين الله علينا ، ولا بد لنا من الوفاء به ، والإسلام هو الالتزام بالطاعة لله سبحانه ، ولا بد من الوفاء بهذا الدين الأعظم بأكثر من الوفاء بدين المال .

والله سبحانه يديننا بالإسلام وهو نعمته الكبرى . جاء في الحديث الشريف : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » .

فكيف مع هذا كله يقتصر فرض الكتابة على دين المال أو الخنطة أو الزبيب دون أن يمتد فيشمل ديننا لله سبحانه وتعالى ، وديننا نحو أمتنا ، وديننا نحو أصحابنا ودين الأب على أبنائه ودين الأبناء على أبيهم ودين الزوجة على زوجها ودين الزوج على زوجته ، وكل هذه عهود وعقود وبيعات والتزامات ينبغى الوفاء بها حتى يكون الناس أمناء مع الله موفين بعهده ، وحتى يكونوا أمناء مع أمتهم موفين بعهدهم معاً .

وإذا كنا قد قلنا إن الدخول في الدين نفسه بيعة أو صفقة لابد من الوفاء بها ، فكيف تقتصر آيتنا الدين على دين المال وحده . أليست الأشياء ياقوم بالنظائر ، وإلا فأين القياس ؟ بل أين الفقه نفسه ؟ والفقه عموماً هو الفهم والإدراك ، فأين الفهم والإدراك ؟ .

لكى نفهم آيتي الدين على الوجه الصحيح ينبغى أن نفسرهما آخذين في الحساب ماسبقهما من الآيات ، لأن من آيات القرآن ما هو مرتبط ارتباطاً كاملاً

بها يسبقها ومايتلوها ، ولا يصح في هذه الحالات أن تفصل الآيات بعضها عن بعض ويستشهد بها مفرقة منفصلة عما يسبقها ويتلوها من الآيات .

وقد نهى القرآن عن ذلك فقال في سورة الحجر (آيتى ٩٠ و ٩١) : ﴿ كَسَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ وفى تفسير هاتين الآيتين جاء فى لسان العرب : « وفى حديث ابن عباس فى تفسير (جعلوا القرآن عضين) أى جَزَّءوه أجزاء ، وقال الليث : أى جعلوا القرآن عضه عضه أى قسموه قطعاً قطعاً (مادة عضه من اللسان) .

والآيات السابقة على آيتى الدين ابتداء من الآية ٢٧٢ من سورة البقرة تنص كلها على الإنفاق فى سبيل الله ، والإنفاق فى سبيل الله فرض من العبد الصادق لربه ، فهو دين ماضى معنوى معاً ، وأشير هنا إلى قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَرَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ . (آية ١٢) وقوله فى سورة الحديد (آية ١٨) : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدَّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ . وقوله فى سورة التغابن (آية ١٧) : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ . وغير ذلك كثير من آيات القرآن التى تتحدث عن ثواب من يصدق وينفق فى سبيل الله أى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعف الله له الثواب .

والآيات التى تشير إليها من سورة البقرة ابتداء من الآية ٢٧٢ ونصها كما ذكرناه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ . ثم تلى ذلك آيات كربات كلها عن الإنفاق فى سبيل الله ، أى إقراض الله القرض الحسن ، وعلى من ينبغى الإنفاق ، وصفة الذين ينفقون ، ثم يذم الله الربا وهو القرض غير الحسن .

وكيف يحل الله البيع ويحرم الربا ، وهكذا حتى نصل إلى آيتي الكتابة ،
فها إذن تشملان إقراض الإنسان لأخيه الإنسان ، وتشملان بالمعنى والسياق
دين الإنسان لربه بنعمة الإسلام ودين المخلوق للخالق سبحانه: بالقرض
الحسن ، ويتضح لنا هذا المعنى عندما نقرأ الآية ٨٢ من سورة النساء وهي
تقول : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي
تَقُولُ ، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ۝ ﴾ .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يكتب كل ما يفعل الناس من خير أو شر - وهو في غير حاجة إلى كتابة - أفلا يكتب الناس كل ما يجري بينهم من معاملات فكيف والله تقتصر آية الدِّين على كتابة دين المال أو عقد المال أو بيعه المال وهي أهون البعات وأيسر العقود والديون ؟

وينحسم الأمر في حسابنا عندما نقرأ في الآية ٦١ من سورة يونس : ﴿... وَمَا عِزُّكَ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

فإذا كان الله سبحانه يكتب في كتاب مبين أى واضح كل شيء حتى الذرة وما هو أصغر منها فكيف لا نستنتج من هذا أن المسلمين والمؤمنين ينبغي لهم أن يكتبوا كل شيء مما يجرى بينهم من تعامل كبيراً كان أو صغيراً ، عظيماً أو هيناً ، فإذا كان هذا هكذا أفلا نخرج من هذا بأن معرفة الكتابة والقراءة فرض على كل مسلم مؤمن . ولا يقدح في هذا بحال أن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فهذه آية من آيات نبوته وبرهانه من براهين صدقه ﷺ ، وهو أمر لا ينسحب على أى مسلم غيره .

لهذا قرر رسول الله ﷺ أن يكون ميثاق قيام الأمة وإعلان قيامها وتحديد أهلها ومسئولياتهم ومآلهم وماعليهم مكتوباً في كتاب أو صحيفة لا مجرد بيعة شفوية أو ميثاق غير مكتوب ، فذلك أقطع للشك وأبعد للريبة ، فإن عقد قيام الأمة ينبغي أن يكون ثابتاً واضحاً لا يختلف الناس في نصوصه ، وإذكر معي هنا قول الله في آية سورة البقرة ٢٨٢ : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ . . .

اشتور الرسول ﷺ مع أصحابه إذن في شأن أمتهم أمة الإسلام ، وكلما اتفق رأيهم على مادة أو مواد أملى الرسول صيغتها على بن أبي طالب ، وهو كاتب عدل وشاهد عدل لا يبدل ولا يغير وهو مؤتمن يأمن إليه الناس جميعاً وهو قوى لا يكتم الشهادة ولا يخشى في الله أحداً من العالمين ، وكل الألفاظ التي استعملتها هنا واردة في آيتي الدين .

وقد كتبت الصحيفة كما قلنا على مراحل . وبعض الباحثين في أمرها يسمونها لذلك وثائق لا وثيقة واحدة فيقولون الوثيقة الأولى والثانية ، وهكذا حتى يصلوا بها إلى ثمان ولا بأس بهذا التقسيم وإن كنا نحن لا نصل به إلى ثمانية أقسام أو وثائق .

والكتاب أو الصحيفة واردة عند ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق سرداً دون تقسيم إلى أقسام وفقرات أو مواد ، ولكننا نحن المحدثين نقسمها مواد لكي تتضح معانيها وقيمتها كوثيقة سياسية ذات أهمية كبرى ، وأول من فعل ذلك الدكتور محمد حميد الله الحيدر إبادي الهندي عندما نشر كتابه القيم « الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة » ، أول مرة في القاهرة سنة ١٩٤٣ وعنه نقل التقسيم إلى مواد - فيما أحسب - مونجورى واط في كتابه عن « محمد في المدينة » . ثم عدت إليها وقسمتها بحسب الاستقراء إلى أربعة أقسام رأيت أن كلا منها كتب في مرحلة من مراحل العهد المدني وعندما درسها روبرت برترام

سارجانت مع طلابه فى جامعة لندن قسموها إلى ثمانية أقسام أو ثمانى وثائق ثم أعدت النظر فى الموضوع فى الفصل الذى أوردته على دستور أمة المدينة . . فى كتاب : عالم الإسلام » ، وسنرى الآن كيف نقسمها بعد سنوات من الدرس والتحقيق .

القسم الأول :

كتب هذا القسم قبل موقعة بدر فى أثناء بناء المسجد ، وربما كان ذلك قبل المؤاخاة أو بعدها ، والأرجح أن المؤاخاة كانت بعد تدوين ذلك القسم الأول ، لأن المؤاخاة مبنية عليه ، فالمؤاخاة كانت لتوثيق الروابط بين المهاجرين والأنصار ، ولا يكون ذلك إلا بعد قيام الأمة وشعور أعضائها بأنهم أمة واحدة من دون الناس قائمة بنفسها على أساس الدين ومكارم الأخلاق .

ويجمع المؤرخون على أن الكتابة - والمؤاخاة - كانت فى دار أنس بن مالك ، والكلام لا يصح على هذه الصورة ، لأن أنس بن مالك كان غلاماً فى الثامنة أو التاسعة فى ذلك الحين ، فلا يصح أن يكون له بيت يجتمع فيه المسلمون مع رسول الله يتشاورون ثم يكتبون مايتفقون عليه ، ولكن الأصح أن البيت كان لأمه أم سُلَيْم بنت ملحان وكانت من الصحابيات من بنى النجار ولم تكن بذات مال لأنها عندما أسلمت أحبت رسول الله وأرادت أن تقدم له شيئاً ، ولم يكن لديها مال ، فأنت رسول الله بابنها هذا وقالت : يا رسول الله ، هذا هو غلام كاتب فأخذه رسول الله . فخدمه أنس حتى كبر وفهم ، فكتب وروى عنه ، وهو الذى قال « فخدمته تسع سنين فما قال لى قط لشيء صنعته : أسأت أو بثس ماصنعت »

ولا يستبعد أن يكون لأم سليم بنت ملحان (وهى أم أنس) بيت واسع الرحبة يجتمع فيه الرسول مع أصحابه .

وهذا يتفق مع مانعرف من مسلك الرسول ، فقد كان - قبل بناء المسجد - يتحاشى أن ينزل أو يجتمع بالناس لأمرذى شأن فى بيت أحد النقباء أو كبار القوم حتى لا يعطى لأحد منهم ميزة ترفعه فوق إخوانه ، وكان صلوات الله عليه فى الغاية من بعد النظر وحساب العواقب ، وقد رأينا مصداق ذلك فى نزوله عند أبى أيوب: خالد بن زيد الأنصارى من بنى مالك بن النجار ، وكان من أوساط الناس مفضلاً ذلك على النزول فى دار أسعد بن زرارة أو سعد بن معاذ أو أى واحد من النقباء .

والآن إليك القسم الأول من الصحيفة أو الكتاب مقسماً إلى فقرات تيسيراً للمناقشة .

يتضمن هذا القسم إعلان قيام أمة الإسلام ، ومن تأسست أول الأمر ، ثم القواعد الأساسية التى تنظم أمور هذه الأمة ، والروابط التى تربط بين أفرادها والحقوق الأساسية لأفراد الأمة والالتزامات المتعينة عليهم حيال بعضهم البعض ، وموقفهم كأمة واحدة قائمة على العقيدة حيال غيرهم من الناس والأساس الأخلاقى المتين الذى تقوم عليه وهو أساس أخلاقى جماعى لأن أخلاقيات أمة الإسلام كلها جماعية ، أى أنها روابط أخلاقية كريمة بين أعضاء الأمة ولا مكان فيها للفضائل الفردية مثل كسب الإنسان المال لنفسه وحدها بالحلل أو إكرام الإنسان لإخوانه على سبيل الفخر أو لنيل السؤدد ، فالعمل كله جماعى والفضائل كلها إسلامية عامة لا مكان فيها لقبيلة أو عصبية إلا على أساس تحديد المسؤولية ، أى أن ذكر المجموعات المؤسسة للجماعة لا يجعل للعصبية القبلية أو العصبية القروية أى مكان أو أهمية . .

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ - هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . .
- ٢ - إنهم أمة من دون الناس .
- ٣ أ - المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .
- ٣ ب - وبنو عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .
- ٣ ج - وبنو ساعدة على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .
- ٣ د - وبنو الحارث على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .
- ٣ هـ - وبنو جشم على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .
- ٣ و - وبنو النجار على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .
- ٣ ز - وبنو عمرو بن عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .
- ٣ ح - وبنو النبيت على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .
- ٣ ط - وبنو الأوس على ربتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .

- ٤ - وأن المؤمنين لا يتركون مفرجا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل . . .
- ٥ - ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . . .
- ٦ - وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسياسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين . . .
- ٧ - وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم . . .
- ٨ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .
- ٩ - وأن ذمة الله واحدة ، يحير عليهم أديانهم . . .
- ١٠ - وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . . .
- ١١ - وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم . . .
- ١٢ - وأن سلم المؤمنين واحد ، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .
- ١٣ - وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً . . .
- ١٤ - وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . . .
- ١٥ - وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . . .
- والآن نعلق على هذه المواد واحدة واحدة على اعتبار أنها أساس تنظيم أمة المدينة وأسلوب التعامل فيها . .

المادة الأولى :

وفيها بيان الأطراف الداخلة في هذا الميثاق أو العهد . ويلاحظ أن هذا ليس عطية من محمد ﷺ إلى الأمة ، فهي تقول كتاب من محمد بين المؤمنين وليس إلى . وتلك نقطة هامة جداً ، فنحن هنا لسنا أمام إملاء من محمد ﷺ إلى الأمة ، بل كتاب يسجل فيه محمد ماتم الاتفاق عليه بينه وبين الأمة ، وبين

طوائف الأمة بعضها وبعض ، وهناك عبارة بين المؤمنين والمسلمين ، فمن هم المؤمنون ومن هم المسلمون ؟ لا يمكن أن يكون اللفظان مترادفين ، فإن الكتاب أو الصحيفة أدق وأخطر من أن تستعمل فيها مترادفات . .

وهذا من أدلة أصالة الوثيقة ، فهي عقد واضح دقيق بين الرسول وأصحابه ، وكلهم في الغاية من الجدية وإدراك خطورة المقام وأهمية الألفاظ . .

فالحق أن هناك فرقاً شاسعاً بين المؤمنين والمسلمين ، وهذا الفرق يستدعى النص على الفئتين في الوثيقة . . .

وإليك الفرق بين المؤمنين والمسلمين كما نجده ، في لسان العرب لابن منظور المصرى الأفريقى :

والإيمان التصديق (التهذيب للجوهري) وأما الإيثار فهو مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن . واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيثار معناه التصديق . قال الله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا... ﴾ ، قال : وهذا موضع يحتاج إلى تفهيمه ، وأين ينفصل المؤمن عن المسلم ، وأين يستويان والإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي ﷺ وبه يحقن الدم . فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي يقال للموصوف به : هو مؤمن مسلم ، وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شك ، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه ولا يدخله في ذلك ريب ، فهو المؤمن وهو المسلم حقاً كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ . أى أولئك الذين قالوا إننا مؤمنون ، فهم الصادقون ، فأما من أظهر قبول الشريعة

واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم ، وباطنه غير مصدق ، فذلك الذي يقول : أسلمت لأن الإيمان لا يبد أن يكون صاحبه صديقاً لأن قولك آمنت بالله ، أو قال قائل : آمنت بكذا وكذا فمعناه صدقت ، فأخرج هؤلاء (يريد الأعراب) من الإيمان ، فقال : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ أى لم تصدقوا إنما أسلمتم تعوداً من القتل . فالؤمن مُبْطِن من التصديق مثلما يظهر والمسلم التام الإسلام مظهر الطاعة مؤمن بها والمسلم الذي أظهر الإسلام تعوداً غير مؤمن في الحقيقة ، إلا أن حكمه في الحقيقة حكم المسلمين ...

وإنما أوردت هذه العبارة الطويلة على تواليها لكي يعرف كل من قرائى أين هو من الإيمان أولاً ..

ثم لكي نعرف أن الايمان الحق يستلزم كما هو واضح من الآية التى ذكرناها (إنما المؤمنون ... الآية) وهى الآية ١٥ من سورة الحجرات ثلاثة أشياء : التصديق وعدم الارتياب بعد الإيمان ثم الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله .

هذا فى القرآن الكريم كما رأينا ، هذا فى الفقرة الأولى من إعلان الوثيقة : لاحظ عبارة : ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، فالجهاد هنا أساس فى تكوين عضو الأمة المؤمن ..

وإذا قرأنا المواد الخمس عشرة التى يتكون منها هذا القسم من الصحيفة لاحظنا أن الكلام كله مقصور بعد ذلك على المؤمن والمؤمنين دون ذكر للمسلمين ولو مرة واحدة .

فكان المؤمنون فحسب لا المسلمين هم الذين يحسب لهم حساب فى تكوين الأمة ، إذن فلماذا ورد ذكر المسلمين فى المادة الأولى ؟ لأن رسول الله ﷺ لم يكن يستطيع أن يهمل ذكر ناس دخلوا الدين ولو بشفاههم ، فما داموا قد نطقوا بالشهادتين وقالوا إنهم مسلمون فلا بد من قبولهم وإقرارهم ، لأن الإيمان بعد

ذلك بيد الله وحده : هو الذى يهذى للإيمان من يريد أو هو الذى يهذى للإيمان لمن يريد ، أما بعد ذلك وفى المواد الخاصة بالحقوق والواجبات فالكلام يقتصر على المؤمنين دون غيرهم لأنهم هم - لا عامة المسلمين - عماد الأمة .

وهناك ملاحظة لغوية هى فى ذاتها دليل على أصالة الكتاب ، فلو أنها موضوعة لما وردت فيها عبارة مثل « بين المؤمنين والمسلمين من قريش » ويثرب فقريش اسم قبيلة ويثرب اسم مدينة فكيف يعطف اسم قبيلة على اسم مدينة ؟ ثم هل كان كل المهاجرين من قريش ؟ كان فيهم من غير قريش مثل عمار بن ياسر وأبى ذر الغفارى .

وقبل أن أختتم الكلام على المادة الأولى أحب أن أضع خطوطاً كثيرة تحت عبارة : وجاهد معهم ، وأذكر القارىء بما ورد فى الآية ١٥ من سورة الحجرات التى ذكرناها التى تنص نصاً لا شك فيه على أن المؤمن لا يتم إيمانه حتى يجاهد كل منهم فى سبيل الله بـماله ونفسه . . .

فمعنى ذلك أن الجهاد بالنفس والمال فرض عين لا فرض كفاية . . فمن أين للفقهء بالقول بأن الجهاد فرض كفاية وأسقطوه كواجب أساسى على كل مؤمن . لقد نص القرآن على ذلك مرة بعد مرة ، وسورة التوبة جعلت الجهاد فرضاً على كل مسلم ، وفى بقية هذا القسم من الصحيفة وفى أقسامها الأخرى نجد الجهاد جزءاً لا يتجزأ من الإيمان وفرضاً لازماً على كل مسلم مؤمن .

فكيف أسقط هذا الواجب ؟ وهل يدرى الناس أثر ذلك فى تطور تاريخ الإسلام ؟ . أثره أن الخلفاء ابتداء من الدولة العباسية أخرجوا العرب ومعظم أمة الإسلام من أشرف واجب يؤديه المؤمن : الجهاد بالنفس والمال واعتمدوا فى تكوين جيوشهم على جند مرتزق مشترى بالمال وبالجنود المرتزق أذلوا الأمة وأخرجوها من ميدان السياسة جملة . كان ذلك بداية التدهور بل كان هو

التدهور ، هل هناك تدهور هو أشد من تحويل أمة الإسلام إلى رعية ، أى قطع غنم تُرعى بكلاب هم الجند المرتزق . .

اذكر معى هنا أبا بكر الصديق حقاً الذى فهم درس الإيمان الحق عن رسول الله ، هنا تفهم كيف أن أبا بكر اعتبر المقصر فى إيتاء الزكاة مرتداً عن الإسلام لأنه منفصل عن الجماعة والأمة ، وعلى هذا الأساس حارب المرتدين - ولم يكونوا مرتدين - حتى عادوا للإيمان الكامل بالإسلام كما أراد الله سبحانه وكما أخذ الناس به رسوله الكريم ...

اذكر معى فى نهاية هذا الحديث قول أبى الطيب :

| | |
|-------------------------|---------------------|
| وإنما الناس بالملوك وما | تفلح عرب ملوكها عجم |
| لا أدب عندهم ولا حسب | ولا عهد لهم ولا ذمم |
| بكل أرض ووطنها أمم | ترعى بعبد كأنها غنم |

أمة الإسلام حلف من المؤمنين الأحرار

جماعات حرة متحدة في المبادئ والغايات ، والمسلم أخو المسلم ،
والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ
دماؤهم ، يرد عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أذانهم . (من خطبة رسول
الله ﷺ بعد فتح مكة) . (الواقدي ٨٣٦/٢) .

أحسب أن هذه الدراسة قد طالت وجاوزت المؤلف في الدراسات التي
تنشر منجمة في الأسبوعيات ، ولقد بدأنا عرض نص الكتاب أو الصحيفة أو
الدستور في حديثنا الماضي . وفي هذا الحديث والذي يليه نستتم عرض بقية مواد
الصحيفة في إيجاز . ولم يكن الاستقصاء الشافي الوافي غرضنا من هذه
المقالات ، إنما غايتنا أن نبين للناس أهمية هذه الصحيفة ، فهي بعد القرآن
الكريم وبقية الأحاديث النبوية ، تعطينا خطأ جديداً واضحاً في الفكر السياسي
الإسلامي الأصيل ، بعيداً عما أدخل عليه وأقحم فيه من آراء جاهلية وأفكار
غير إسلامية انحرفت بمسار الفكر السياسي عندنا انحرفاً لم يجعل منه فكراً
سياسياً أصيلاً ، إنما هو مواعظ وأمانى وتقنيات هالكة لا يتحصل منها
شيء ، نجدها في كتب الأحكام السلطانية ومواعظ الملوك ومرايا الأمراء التي
يسميها بعض الناس بالفكر السياسي الإسلامي ظلماً منهم وعدواناً .

وقد قرأنا عند ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق فاتحة الصحيفة ، ثم المادة الأولى منها ، ونصها كما يلي : « وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

وقد ناقشنا المادة الأولى على قدر ماتيسر لنا ، ولكننا نحب أن نؤيد صحة الوثيقة نصاً ومعنى بنص قرآني وهو قول الله تعالى في الآية ٧٤ من سورة الأنفال :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ألا نجد هنا كل العناصر المكونة للأمة الإسلامية الأولى كما وردت في فاتحة الصحيفة ومادتها الأولى ؟ .

فكيف يتطرق إلى أحد شك في أصالة هذه الصحيفة بعد ذلك ؟ .

والمادة الثانية من الصحيفة تقول عن هذه العناصر . . إنها تؤلف الأمة فيما بينها ، وتقول عنهم الصحيفة « إنهم أمة واحدة من دون الناس » .

وتلك هي النقلة الكبرى في تاريخ أمة الإسلام : إلغاء القبليات

والعصبية واعتبار المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم « أمة من دون الناس » .

الإيمان بالله هو الرابطة ، والجهاد في سبيل الله هو الغاية .

ومن الرابطة والغاية تتكون الأمة ، إنها أمة البشر جميعاً من المؤمنين ، يربطهم بعضهم إلى بعض الإيمان الواحد ، ووظيفتهم وغايتهم الجهاد في سبيل الله ، فأين هذا من ديانة بنى إسرائيل التي تقول - في زعمهم - إنها رابطة بين أسباط إسرائيل من دون البشر ، ومن عداهم كفار ، سواء أكانوا مؤمنين بالله أم لم يكونوا مؤمنين .

والعبرة في تكوين أمة الإسلام على هذا النحو هي أن أى جماعة حية نشيطة عاملة لا تكون عاملة في سبيل الخير حقاً إلا إذا كان لها إيمان يجمعها ، ولا تزال بخير مادامت لها غاية تسعى إلى تحقيقها ، فإذا تلاشت الغاية العليا انتهت الأمة أو الجماعة كقوة فعالة في بناء البشر ، وصناعة للتاريخ .

واذكر معي هنا قول الله سبحانه في سورة الحجرات ، آية ١٣ : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

أجل . . كلنا أولاد أب واحد وأم واحدة .

وجعلنا الله شعوباً مثل شعب مصر وشعب العراق وشعب الشام وشعب الهند وشعب الصين وشعب اليونان والرومان .

وجعلنا كذلك قبائل مثل قبائل العرب والبربر والترك والمغول والتتار ، ولا يخرج أهل الأرض في الجاهلية أى ماقبل الإسلام ، عن أن يكونوا إما قبائل وإما شعوباً .

ثم جاء الله بالإسلام ليتعارف بعضنا على بعض ، لنكون أمة واحدة هي أمة الإيمان ، وليكون المقياس الوحيد بيننا هو التقوى أى تقوى الله ، وهى أم الفضائل ، و« رأس الحكمة مخافة الله » .

والمادة الثالثة تبين لنا العناصر المكونة للأمة ، وهم المهاجرون من قريش ، وخمس وحدات قبلية من الخزرج ، هم بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وجشم وبنو النجار .

وإذا نظرنا إلى جدول أنساب الخزرج وجدنا أن هذه الوحدات الخمس تجمع كل الخزرج .

وثلاث وحدات من الأوس هم بنو عمرو بن عوف وبنو النبيت وبنو الأوس ، والمراد بهم مجموعة من ثلاث قبائل أوسية ، وهم وائل وأمية وعطية ويطلق عليهم معا اسم الجعادرة :

وهذه الوحدات الثلاث هي كل الأوس .

وبنو الأوس المذكورون هنا كانوا يسمون أوس مناة ، وقد تأخر إسلامهم إلى مابعد الخندق ، أى أنهم دخلوا الأمة دون إسلام ، ينطبق عليهم هنا ماجاء فى المادة الأولى : « ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » .

ومحمد ﷺ لم يكرههم على الإسلام بل تركهم لأنفسهم حتى هداهم الله للإيمان فدخلوا فيه . .

وتستوقف نظرنا هنا العبارة التى ترد مع كل وحدة قبلية من هذه ، وهى عبارة لا تتغير إلا فيما يتعلق بقريش ، وهى :

« المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

ومعنى « على ربعتهم » . ينظمون أمورهم على الطريقة التى مضوا بها إلى الآن مادامت لا تتعارض مع الإسلام .

ويتعاقلون معاقلهم الأولى : أى يشتركون فيما بينهم (على دنهم) فى دفع ديات من يقتلونه أو يجرحونه من غيرهم ، تعويض من قتل أو جرح منهم على اشتراك بينهم فى ذلك . أما المهاجرون فقد تركوا - بهجرتهم - معاقلهم أى دياتهم ، فهم يشتركون فى دفع دياتهم الجديدة مشتركين .

وماذا نستنتج من النص على ذلك مع كل وحدة قبلية واحدة واحدة من هذه الوحدات القبلية بالاسم ؟ معناه أن أمة الإسلام من الممكن أن تتألف من وحدات سياسية كل منها مستقلة عن الأخرى فى شئونها الداخلية وشئونها المالية بشرط أن تجتمع كلها على الإيثار والجهاد والزيادة عن حوض الأمة وأراضيها كلها مجتمعة .

وسترد شروط أخرى بعد ذلك ، ولكن هذا هو المهم . ومعنى ذلك أن أمة الإسلام الواحدة تجمعها روابط الإسلام والجهاد مادامت تشترك معا فى شئون الدفاع عن أوطانها التى يجعلها الإسلام وطناً واحداً . ومعنى ذلك - مرة ثانية - أن أمة الإسلام الجامعة ، أمة الأحرار ، لم يكن من الضرورى قط أن تخضع

لنظام سياسى واحد أو لسلطان مركزى واحد . . بل يمكن أن تربط وحداتها بعضها إلى بعض رابطة رمزية هى التى سماها أبو بكر « خلافة » . . وهى مصطلح بعيد كل البعد عن معنى الملك أو السلطان أو الدولة أو الإمبراطورية . وذلك هو لباب الفلسفة السياسية لأمة الإسلام .

إنها ليست إمبراطورية ولا كسروية ولا قيصرية تخضع الناس لسلطان واحد بالقهر والقوة ، بل هى رابطة الإيمان التى لا تمس كرامة شعب من شعوبها أو وطن من أوطانها . فكما أن كل فرد فى هذه الأمة حر مادام ملتزماً بالإيمان بعقيدة الأمة مرتبط معها بروابط الجهاد والدفاع عن الدين وحماية وطن الأمة العام الواحد ، ف كذلك كل وحدة من وحداتها كان من الممكن أن تظل قائمة بذاتها وشخصيتها ومقوماتها داخل رباط وحدة الإيمان الواحد والهدف الواحد .

وأبو بكر عندما قرر حرب المرتدين لم يفعل ذلك عقاباً لهم على الرغبة فى الاستقلال بمواطنهم وشئونهم ، بل محافظة منه على الوحدة الروحية والمعنوية للأمة ، ولهذا حاربهم على الامتناع عن إيتاء الزكاة وهى شىء رمزى ، وعندما عادوا إلى إيتاء الزكاة ترك كل جماعة منهم حرة فى مواطنها ومنازلها ، وطلب إليها أن تشترك فى الجهاد دون أن يحتل أراضيها بقوة عسكرية ، ودون أن يقيم على كل منها حاكماً .

ولهذا سمى الرسول ﷺ رجاله بالعمال ، جمع عامل ، والمراد به العامل على الصدقة (والعاملين عليها) والصدقة أو الزكاة هى رمز إخاء المسلم للمسلم أو حق المسلم على المسلم ، والعامل فى الحقيقة ليس حاكماً إنما هو الرجل الذى يرسله الخليفة ليعمل على تحقيق معنى الإخاء بالعمل على الصدقات أو الزكوات .

هنا نفهم الفرق بين عمال أبى بكر هؤلاء وعمال معاوية الذين كانوا مرازمة وحكماً عسكريين من أمثال زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف

ويوسف بن عمر وخالد بن عبد الله القسرى .

أمة الإسلام إذن فدرالية ، مثلها في ذلك مثل الكانتونات السويسرية أو الولايات المتحدة الأمريكية . قررها الرسول وأصحابه ونفذها السويسريون والأمريكيون ، أما نحن فانتكسنا وارتنكسنا وجعلناها كسروية أو قيصرية . أرايت معنى الانكسار القاتل الذى أصاب الاتجاه السياسى الإسلامى ؟ .

وهل فهمت إذن لماذا قلت لك إن كل اتجاه الفكر السياسى عند المسلمين كان خارج نطاق أمة الإسلام كما أرادها الرسول وأصحابه ؟ . . كل هذا الفكر السياسى دار حول « الخلافة الملك » أى الكسروية أو القيصرية تحت ستار من خلافة ، بالاسم ، وهى ملك فى الواقع . .

كل جماعة منهم حرة فى مواطنها « تتعاقل معاقلها الأولى وتنفذ عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » . . . وأبو بكر لم يرسل إلى منازل القبائل حكاماً أو قوات عسكرية ترابط فيها ، بل دعاهم إلى الاشتراك فى الجهاد فاشتركوا فيه وفتحوا ومدوا رواق أمة الإسلام .

هنا نفهم الفرق بين عمال الرسول ﷺ وعمال أبى بكر وعمر من ناحية ، وعمال معاوية بن أبى سفيان وأبى عبد الله السفاح ومن جاء بعدهما من ناحية أخرى ، فهؤلاء الآخرون كانوا مرابزة (جمع مرزبان وهو الحاكم العسكرى الفارسى) أو حكاماً عسكريين روماناً Praefecti - Pracefeatus - وأمثلتهم - كما قلنا - زياد بن أبية وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف ويوسف بن عمر ويزيد ابن أبى مسلم ، فهؤلاء لم يكونوا عمالاً لخليفة مسلم ، إنما كانوا نواب ملوك Vicerius يضربون الناس ويذلونهم ويحبسونهم ويقتلونهم ، وواحد منهم دبر اغتيال الحسين بن على رضى الله عنه وعن آله أجمعين .

أمة الإسلام إذن - نتيجة لما قلناه - فدرالية أو تحالف وحدات سياسية كل منها مستقلة بذاتها وشخصيتها وإقليمها وتقاليدها ونظام العمل الداخلي (على ربعتهم) فيها لا يتعارض مع دستور الأمة العام ، وهو هنا القرآن والسنة ، ومن السنة هذه الصحيفة ، وهي سنة أقرها النبي ﷺ وأملأها باللفظ الذي أقرته به الأمة لا بلفظه ﷺ لأنه أراد أن تلتزم بها الأمة لفظاً ومعنى .

إنها فدرالية وليست دولة مركزية ، مثلها في ذلك اتحاد الكانتونات السويسرية Con Federtio Heloetica والولايات المتحدة الأمريكية .

أما نحن فانتكسنا وارتكسنا وجعلناها إمبراطورية أو كسروية أو قيصريه .
الغينا كل أساس الأمة الإسلامية وروح التنظيم فيها ، ثم جلس فقهاؤنا يتناقشون فيمن يحق له أن يكون الخليفة القيصر أو الخليفة الإمبراطور ، وجعلوا الأمة قطعاً من الغنم - رعية . . .

هل فهمت إذن لماذا قلت لك : إن كل اتجاه الفكر السياسي الإسلامي عند أصحاب السلطان ورجالهم ونصحائهم لم يكن إسلامياً ؟ . . ومن بين هؤلاء النصحاء وهم جزء لا يتجزأ من التركيبة السياسية والاجتماعية العامة ، أو ما يسمى بالاستابلشنت Estaablissement وهو مفهوم نترجمه ترجمة حرفية خاطئة فنقول المؤسسة ، وما هو المؤسسة إنما هو النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي القائم للجماعة معاً . . أيا كان شكله واتجاهه .

* * *

والمادة الرابعة تقول : وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً - أو مفرحاً - بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

والمفرج (بالجيم) هو المسلم الغريب الذى يدخل فى جماعة إسلامية ناجياً
بدينه من جماعته الكافرة ، والمفرج (بالحاء) هو المثقل بالدين .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن الفكرة وراء المعنيين إسلامية صرف ، فإن
واجب الجماعة حيال هذا وذاك هو أن تعطيه فى حدود المتعارف عليه لكى يفتدى
نفسه إن كان أسيراً بين قومه الأولين ، أو يؤدى دينه إن كانت عليه دية (عقل) .

هنا أيضاً يتأكد معنى التضامن والتكافل بين أفراد الأمة . هنا كذلك نرى
أن كل القواعد الأخلاقية التى تسير عليها الجماعة قواعد جماعية أو أخلاقيات
جماعية ، أى الأخلاقيات التى يتطلبها الإنسان لأمة متآخية متكافلة .

* * *

والمادة الخامسة/سياسية اجتماعية : « ولا يحالف مؤمن مولى دونه » والحلف
المراد هنا هو رابطة ولاء أو مولاة بين رجلين ، وهذا الحلف يستتبع التزامات
مالية وسياسية واجتماعية بين الإنسان ومن يدخل فى حلفه أو ولائه ، فالحليف
على شرط العرب إذ ذاك ملزم بأن يقف مع حليفه فى حالات الخلاف والنزاع ،
وهو ملزم بأن يؤدى عنه دينه لأنه ضامنه ، ويؤدى كذلك دينه أو دية ماجرح أو
اقترب ، ومن ثم فلا يجوز أن يحالف مؤمن مولى مؤمن دون علمه أو على رغمه .

* * *

والمادة السادسة تقول : « وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى
وسيلة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين » .

فهى إذن مادة تنظيم سياسى اجتماعى وتشريع داخلى لتنظيم الأمور داخل الأمة أو الجماعة .

فالمؤمنون المقصودون هنا هم المتقون ، أى الذين يراعون الله ويخافونه ويتصرفون فى حدود ما أمر ونهى وشرع ، وهؤلاء هم الأمة أو جماعة أهل الإيمان ، وهم ملزمون جماعياً أن يقوموا على من تعدى حدوده وتعدى على حقوق غيره (وسبغة ظلم) أو اقترف أى مخالفة للقانون الخلقى الإسلامى ، أو ارتكب عدواناً صريحاً على الجماعة أو فرد منها ، أو حاول الفساد أو الإفساد بين المؤمنين . هؤلاء جميعاً تقف الأمة كلها فى وجههم وتنزل بهم العقاب .

هنا نرى كيف أن الصحيفة تجعل القوة الحقيقية والسلطان كله للأمة ، ولها - كما سنرى - أن تختار من يقوم بذلك بتفويض منها ، ولكن المسؤولية تظل مسئولية الأمة كلها فى كل حالة ، ولا يشفع لها شىء فى أن تترك باغياً يبغي عليها أو على فرد من أفرادها ، أو ظالماً يرتكب الإثم والفساد داخل الأمة . . .

ثم انظر إلى المادة التالية وهى السابعة ، فهى مكملة لهذه ومؤكدة لمعنى سلطة الأمة وواجبها نحو تنظيم أمورها وإقرار الأمن والقانون داخل نطاقها مهما كانت الظروف : « وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم » ...

أجل . . الأمة وسلامة الأمة والحفاظ على السلام والأخلاق داخل الأمة مسئولية الأمة كلها ، حتى لو اختارت من يقوم بذلك باسمها ، فإن ذلك لا يعفيها من المسئولية الجماعية ، وواجبها هذا ملزم حتى حيال الأبناء ، وهذا هو الذى أراده أبو بكر عندما قال : أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنتم فأعينونى وإن أسأت فقومونى .

هنا يعترف أبو بكر بسلطان الأمة ، ويقول إن اختيار الأمة إياه لا يعفيها من المسئولية ، فإذا هو أحسن القيام بها اختارته الأمة له فعلها أن تعينه ، وإن هو

أساء أو عجز عن القيام بمسئوليته فللأمة أن تقومه ، والتقويم هنا - بلفظ أبى بكر - بغير حدود ، فقد يصل إلى العزل أى سحب الأمة تفويضها واسترداد حقها لتتصرف فيه كما تريد . .

أليست هذه أيها القوم هى الديمقراطية فى حكم الأمة ، أرسى قواعدها الله سبحانه وطبقها رسوله ، ثم نسيناها ومضينا الآن نتعلمها من غيرنا ؟ .

* * *

والمادة الثامنة تقول : ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . وهذا تأييد لوحدة الأمة ومسئولية المؤمن حيالها ، فهذه أمة المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسله وكتبه ، والكفار هم أعداؤها ممن لا يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، والإيمان بالله سبحانه وبرسوله وبقية رسله وكتابه وبقية كتبه هو أساس الوجود الإنسانى كله ، فكيف يجوز مع هذا أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن فى كافر عدو الله والإنسانية ؟ وكيف يجوز له أن ينصر كافراً أى عدواً لله والإنسانية على مؤمن ؟ .

وإلى الذين يشكون فى أصالة هذه الصحيفة أقول : إن الواقدى أتاناً فى مغازيه بنص خطبة رسول الله ﷺ بعد فتح مكة ، فردد فى خطبته نفس المادة الثامنة من الصحيفة ، قال : ولا يقتل مسلم بكافر .

* * *

والمادة التاسعة تقول : وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أديانهم . والذمة هى الأمان ، وذمة الله هى أمان الله ، والمراد أن أى عضو من أعضاء الأمة مهما

صغر . . له الحق في أن يجير أى يمنح الأمان لأى إنسان (بشرط ألا يكون محدثاً أو مقترفاً جناية) حتى الكافر تجوز إجازته وإضفاء الأمان عليه لعل ذلك يكون أدعى لإسلامه .

وقد أيد الرسول صلوات الله عليه هذا المبدأ ، واستند إلى نفس نص هذه المادة التاسعة من الصحيفة عندما أسر أبو العاصى بن الربيع زوج السيد زينب بنت الرسول في موقعة بدر ، فلما علمت بذلك زينب بعثت في فداء زوجها الذى فرق الكفر بينها وبينه ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاصى حين بنى عليها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا . وأخذ الرسول عليه عهداً أن يخلى سبيل زينب وكانت لا تزال بمكة ، فأخلى أبو العاصى سبيلها ، ولحقت بأبيها في المدينة ، وبعد ذلك بقليل خرج أبو العاصى في تجارة له فأسره الناس وأتوا به وبإهله إلى المدينة ، وتحاليل أبو العاصى حتى وصل بيت زينب فاستجار بها فأجارته (وكان لا يزال كافراً) .

فلما خرج رسول الله ﷺ للصلاة الصبح من اليوم التالى ، وكبر وكبر الناس ، خرجت زينب من صفة النساء وقالت : أيها الناس ، إني قد أجزت أبا العاصى ابن الربيع . فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : أيها الناس هل سمعتم ماسمعت ؟ فقالوا نعم ، قال : أما الذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء حتى سمعت ماسمعت ، إنه يجير على المسلمين أدناهم ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى ابنته وقال : أى بنية ، أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . . ثم لم يلبث أبو العاصى أن أسلم وعاد إلى زوجته . .

فهنا نرى أن رسول الله ﷺ يستشهد بنص مادة كاملة من الصحيفة ، وفي الخطبة التى ألقاها رسول الله ﷺ بعد فتح مكة نقرأ عند الواقدي : « والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يرد

عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أدناهم ، ومشدهم (قويم) على مضعفهم (قويم) وميسرهم على قاعدهم .

وهنا يردد الرسول نص المادة بعبارة ولفظه هو وهما أبلغ معنى ومبنى ..

والمادة العاشرة تقول : « وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس » .
والولاء تحالف الرجل مع الرجل على النصرة والمعاونة ، فأنت مولاه وهو مولاك والوليان متساويان ، وفي الحديث : « الولاء لحمه كلحمه النسب » (بضم السلام) فالولى قريب الولى ، والمعنى المراد أن المسلمين أقارب ، وهم أسرة واحدة من دون الناس ، وليس أبلغ من هذا فى توكيد رابطة أخوة الأمة ووحدتها عقيدة ودماً ...

وتؤيد نص هذه المادة ومعناها آية كريمة هى الثانية والسبعون من سورة الأنفال .. حيث نقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ ﴾ .

والمادة الحادية العشرة تقول : « إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » ..

وهذه المادة تعطى بعداً سياسياً وإنسانياً للأمة وصحيفتها ، فهى سلم لمن يسالمها وحرب لمن يعادها ، فإذا تبع يهود المدينة أمة الإسلام وسالموها ودخلوا فى حلفها ، فإن الأمة تنصرهم وتساوى بينهم وبين المسلمين فى الوضع السياسى ، وتعاملهم معاملة المسلمين ولا تجور أو تعتدى عليهم ولا تناصر عدواً لهم عليهم ..

ومعنى هذا أن هذه المادة كتبت بعد مناقشات وأخذ ورد مع اليهود ، فقد بدأ الرسول يدعونهم إلى الإسلام فأبوا إلا قليلاً منهم ، ولكنهم عرضوا أن يدخلوا في حلف الأمة وللائها ، فتشاور الرسول مع أصحابه في ذلك ثم مع اليهود ، فشرط لهم واشترط عليهم ، وانتهى الأمر إلى نص هذه الموادة ، وكان رجاء الرسول عظيماً في أن تكون هذه الموادة سبيلاً إلى إسلامهم كما حدث مع غيرهم كثيرين .

ونص هذه المادة يدل على أن هذا القسم الأول من الصحيفة قد كتب قبل موقعه ، وسرى أن الأمر سيتغير بعدها . . .

والمادة الثانية عشرة تقول : «وإن سلّم المؤمنين واحد ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » ..

ونحن هنا أمام نص سياسى صرف ، فما دامت الأمة واحدة فإن سلمها واحد ، ولا يحل لمؤمن أن يسالم عدواً أثناء قتال في سبيل الله إلا على اتفاق وتشاور وتراض بين المسلمين في ذلك .

ويؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة (الآيتين ٢٠٨ ، ٢٠٩) وقد أنزلت هاتان الآيتان قبل بدر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . فَإِنْ رَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد ذكرنا أن هاتين الآيتين أنزلتا قبل بدر ، وكان الكثير من القبائل قد سالم المسلمين نتيجة للغزوات والسرايا الأولى التى سبقت بدرًا ، فكان بعض المسلمين يخطىء فيغير على بعض من سالم الأمة من جيرانها ، فكان نزول هاتين

الآيتين مؤيداً لمعنى مافى الصحيفة ، ومحذراً المسلمين من التهادى فى ذلك الخطأ والاستمرار فى المغازاة فى غير سبيل الله .

ويؤيد هذا المعنى قول الله سبحانه فى سورة الأنفال ، وقد نزلت بعد بدر وقبل أحد ، وكان الموقف بين أمة المدينة وخصومها خطراً مثقلاً باحتمالات الحرب ، ولكن كثيراً من القبائل كانت تدخل فى الإسلام أو تسالم أمة الإسلام ، وفى هذه المعاني تقول الآيات من ٦٠ إلى ٦٢ من سورة الأنفال أيضاً وهى الثامنة من سور القرآن : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ، وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ الْذِي أَنْذَكَ بِبَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهذه الآيات واضحة بينة فيما يتصل بالسلم مع الأعداء للأمة دائماً أن تعد نفسها للقتال وتسليح له أبداً لترهب العدو ، وهناك من الاعداء ناس لا يعرف المسلمون علام انطوت قلوبهم فليتركوا على حالهم ، لأن الله وحده يعلم مافى نفوسهم ، وجنحوا للسلم فليستجب المسلمون لدعوتهم للسلم ، وإن جنحهم للسلم خداعاً للمسلمين فلا بأس على المسلمين من ذلك ، لأن الله حسبهم وهو ناصرهم بإذنه كما أيدهم بنصره فى بدر .

* * *

والمادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لطبيعة الجهاد المستمر التى ينبغى أن تميز الإسلام ، فإن من أكبر وظائف أمة الإسلام أن تستمر فى جهادها بالحكمة والموعظة الحسنة حيناً وبالحرز حيناً ،

حتى يصير الدين كله لله ، أو حتى يدخل أهل الأرض جميعاً في الإسلام ، ولهذا فإن الجهاد ينبغي أن يكون عملية مستمرة لا توقف فيها ، والمسلمون جميعاً ينبغي أن يشتركوا في هذا العمل ، فمن لا يقاتل يستطيع أن يعين بهاله ، والأمة كلها مطالبة بأن تعوض من يضحي بدمه في سبيل الله ، وفي ذلك تقول الصحيفة :

« وإن كل غازية معنا يعقب بعضها بعضاً » . . أى أن كل غزوة أو سرية ينبغي أن تتبعها غزوة ، فتتعاقب الغزوات والسرايا ويستمر الجهاد ، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض « أى يعوض بعضهم بعضاً » بما نال دماءهم في سبيل الله . . لأن أمة الإسلام ينبغي أن تكون كلها في المعركة . . من يقاتل يقاتل ، ومن لا يقاتل يعوض غيره عما يصيبه ، والقتال هنا يعني الجهاد أى العمل المستمر في سبيل نشر الدعوة الإسلامية .



والمادة الخامسة عشرة هي خير ختام لهذا القسم المدون من الصحيفة إنها تعطي القاعدة الخلقية والإنسانية التي ينبغي أن تكون أساس الحياة والعمل في أمة الإسلام ، وسنلاحظ أن كل قسم من أقسام هذه الصحيفة ينتهي بعبارة خلقية من هذا الطراز لأن أمة الإسلام أمة أخلاق سامية . . أمة مكارم أخلاق مستمدة من الهدى الإلهي :

« وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه » . . أى أن أمة الإسلام ينبغي أن تكون دائماً على أحسن ما يكون من هدى القرآن ، ونلاحظ هنا أن هذه المادة تردد روحاً ولفظاً معنى قرآني هو الوارد في الآية التاسعة من سورة الإسراء وهي السابعة عشرة من سور القرآن :

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْسَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ .

لهذا ينبغي أن يكون المؤمنون المتقون على أحسن هدى وأقومه ، فلا يكفي أن يكونوا على هدى بل لابد أن يكونوا على أحسن الهدى وأقومه ، لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، فإذا لم يكن المسلمون على هذا المستوى فهم لن يحققوا ما يطلب منهم .

أليست هذه خير أمة أخرجت للناس ؟ . . أليست هذه هي الأمة التي ينبغي أن تكون خير أمة أخرجت للناس ؟ إذن فلا بد أن تكون على أحسن الهدى وأقومه ، لا ضعف ولا تردد ولا ريبة ولا تقاعس . . إنها إيمان ثابت وهدى حسن سليم صحيح ، بل أحسن ما يكون من الهدى وأكثره استقامة . . وكيف لا تكون هذه الأمة على أحسن هدى وأقومه ومعها كتاب الله وفيها رسوله ؟ . .

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ .
(آل عمران الآية ١٠١) .

إنها أمة الضمير إنها أمة الإسلام

« وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على
أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم
وأثم وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وإثم .
وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله » .

فى هذا القول الأخير من هذه الدراسة سأجمع على إيجاز ماكان ينبغى أن
يقال فى أربعة فصول أو خمسة ، لأن الصحيفة أو الكتاب الذى نحن بصدد
جدير منا بأكثر من هذه العناية التى أوليناها إياها ، لأنه أثر بالغ الأهمية بالنسبة
لبناء أمة الإسلام ، وقد رأينا أن بنود الصحيفة تتطابق مع نصوص آيات قرآنية
وأحاديث نبوية ، ثم هى تنطبق بعد ذلك على الأخلاقيات الإسلامية وتوضح لنا
بالتطبيق العملى ماذا يراد بالأخلاقيات الجماعية أو أخلاقيات الأمة ، فهى
القواعد الأخلاقية التى يفرضها على الإنسان وجوده فى جماعة أو كونه عضواً فى
أمة ، وهى تختلف فى كثير عن الأخلاقيات الفردية ، فأنث مثلاً كفر تدعى
نفسك مسئولاً عن نفسك وأهلك ، وأنك إذا قمت بما عليك نحو نفسك وأهلك
الأقربين فقد أنجيت نفسك وسلمت واستحققت رضا الله سبحانه وتعالى
وثوابه ، وما هكذا الأخلاقيات الجماعية فهى تقول لك إنك لا تنجو وحدك قط ،
لأنك عضو من جسد واحد هو الأمة ، فإما أن تنجو الأمة كلها وإما لا نجا لك

ألم تسمع قول رسول الله ﷺ : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ؟
فكيف تكون حجراً في بناء ثم تنجو بنفسك والبنيان كله ينهدم ؟ .

ألم تسمع قول الرسول : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاصدهم كمثل الجسد
إذا اشتكى منه عضو تداعى له بقية الأعضاء بالسهر والحمى » ؟ ، فكيف ترجو
وأنت عضو في هذا الجسد أن تنجو والجسد كله أو بعضه عليل محموم ، ثم -
وقبل هذا كله - ألا تذكر قول الله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ . (المائدة :
٣٢) ، وهذا هو الدرس الأكبر الذي نسى أن يعلمنا إياه السابقون ، وهذه
الصحيفة تؤكد وسترى في هذا المقال مصاديق أخرى لذلك المعنى ، ولا نجد
هذا المعنى قط في كتاب من كتب السياسة التي تدخل ضمن ما يسمى بالفكر
السياسي عند المسلمين ، إنها الذي نجده فيها كلها أننا - الأمة كلها رعية أى
ماشية وغنم ، وأن علينا كلنا أن نرضى بمن وُلّي علينا ولو كان فاسقاً قاتلاً ، وكل
مانستطيع حياله هو أن نجثو على ركبنا أمامه ونقول : سألناك بالله يامولانا وراعينا
إلا عدلت فينا عطفاً منك ورحمة والله سبحانه يجزيك عنا أحسن الجزاء .

واستمع هنا إلى قول الإمام الغزالي - وهل بعد الغزالي إمام أو فقيه ؟ :

« وأما المقدمة الثانية ، وهى أن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال
لا ينتظم إلا بسلطان مطاع فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت
السلطين والأئمة ، وإن ذلك لو دام لم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع
دام المهرج وعم السيف وشمل القحط . وهلكت المواشى وبطلت
الصناعات ، وكان كل من غلب سلب . ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم
مادام حياً ، والأكثر يهلكون تحت ظلال السيوف ، ولهذا قيل : السدين

والسلطان توأم ، ولهذا قيل : الدين أسُّ والسلطان حارس ، ومالا أس له فمهدوم ومالا حارس له فضائع » .

وهذا جانب من كلام أبي حامد الغزالي في كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » . .

وتسأله : والأمة يا أبا حامد أين تكون ؟ ولن تجد الجواب هنا ، بل تجده في القرآن الكريم وفي الصحيفة وفي الثابت من الحديث والأثر ، والأثر هو الحديث الشريف ، ومن بينه وفي أوله ذلك الكتاب الذى ندرسه اليوم .

وقد رأينا براهين من ذلك فيما عرضنا من الصحيفة وهو قسمها الأول ، فلننظر إلى قسمها الثانى ، ويستنتج من مواده أنه كتب بعد القسم الأول ، بقليل ، بعد معركة يوم بدر التى ثبتت أقدام الأمة وأعلت مكانتها ، ومن الممكن أن يكون ذلك القسم قد كتب قبيل « أحد » أو بعدها بقليل ومعركة أحد كانت فى ٧ شوال سنة ٣ هـ / ٢٣ مارس ٦٢٤ م .

وقد رقمنا مواد القسم الأول من ١ إلى ١٥ ونبدأ الآن بالمادة رقم ١٦ - « وأنه لا يجبر مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن » .

وهذه المادة تدل على أنه كان فى المدينة إلى ذلك الحين مشركون من العرب ، تركوا على حالهم حتى يقتنعوا بالإسلام ويسلموا ويؤمنوا ، ولكنهم كانوا حلفاء الأمة داخلين فى عقدها وعهدها ، وقد قلنا فى حديثنا السابق إنه كان من هؤلاء مجموعة أوس مناة التى أسلمت بعد الخندق وسميت بعد ذلك بأوس الله ، وقد يكون هناك غيرهم ، وكان رئيس أوس مناة هؤلاء أبا قيس صيفى بن الأسلت وكان شاعراً مشهوراً له بالتجويد ، وقد ذكره الأصفهاني فى الأغاني .

والأمة هنا تحرم على هؤلاء أن يجيروا لقريش نفساً أو مالاً والمراد بالنفس رجل قرشى أو امرأة قرشية أو مولى أو عبد لأحد من قريش . وإذا كان للمؤمن حق عند ذلك القرشى أو مواليه أو ماله فلا جور لأحد .

في كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام : « وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريشى ولا يعينها على مؤمن » .

وأبو عبيد القاسم بن سلام من أعظم رجال الحديث ، وقد روى نصها كلمة كلمة بسند يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالوا : حدثنا الليث بن سعد قال : حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب (الزهري) وكل هؤلاء من أئمة رجال الحديث الأول ، وكذلك كل رجال سنده كما رأينا .

إن هذه الصحيفة غير موثقة ولا مؤيدة من رجال الحديث . فها هي ذي موثقة مؤيدة من أهل الحديث بل من القرآن الكريم نفسه ، وقد ذكرنا في مقالنا الماضي أن رسول الله ﷺ استند إلى مادة منها في إجازة ابنته زينب رضى الله عنها لزوجه أبى العاص بن الربيع ، وكان الإسلام قد حال بينها وبينه ، وكرر الرسول بعض موادها في خطابه لأهل مكة عندما دخلها بعد الفتح .

والمادتان ١٧ و ١٨ مرتبطتان إحداهما بالأخرى ، ولهذا نوردتهما معا .

١٧ - « وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولى المقتول » .

١٨ - « وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه وفي قتل المؤمن للمؤمن عمداً الاعتبار عن بيته » يقول سبحانه وتعالى في سورة النساء آية ٩٣ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ .

وعن عقاب القاتل في هذه الدنيا ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس
بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن ﴾ .
(المائدة ٤٥) . هذا في شريعة بنى إسرائيل وتحجىء شريعة الإسلام فتوجد إلى
جانب القتل مخرجاً آخر قد يكون أجدى على ولى الدم من الثأر وهو أخذ الدية .

والصحيفة هنا تقول : إن من قتل مؤمناً عمداً فإنه يقتل به (فإنه قود به)
إلا أن يرضى ولى المقتول ، فقد يرى ولى المقتول أنه لا يفيد شيئاً من قتل القاتل
إلا شفاء الغليل والأخذ بالثأر ، والثأر يجلب الثأر إلى مالا نهاية فيرى ولى الدم
أن يأخذ الدية وخاصة إذا كان فقيراً أو امرأة ذات أولاد لا عائل لها .

والصحيفة تعطى حق الثأر للأمة ، ولا تجعل لأحد من الأمة الحق في
التساهل في ذلك الحق إذا تمسك ولى الدم بثأره وفي هذه الحالة تقول : ولا يحل
لهم إلا قيام عليه .

أى أن قتل قاتل المؤمن فرض على الأمة إذا تمسك المولى بثأره .

فيجىء ابن كثير في تفسيره ويقول : ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه
من الوجوه ، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال :
« لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا
بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق
للجماعة » ...

ثم يقول : ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية
أن يقتله إنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . . (٢ ص ٣٢٩) .

وتعليقاً على هذا نقول : إن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان كان خليفة فهو
إمام الجماعة ، ولكنه هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضى الله تعالى عنه ،
من الذى يأخذ بثأر الحسين وآله ؟ وأبوه معاوية بن أبى سفيان كان خليفة إماماً

ولكنه أمر يقتل حجر بن عدى وأصحابه ظلماً وعدواناً فمن ولى دم حجر بن عدى ؟ الجواب : الأمة .

وأكثر من ذلك : ألا تقول الآية الكريمة ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ ؟

فاسمع قول ابن كثير فى ذلك والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها : أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل ، فإن تاب وأناب ونشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول عن ظلامته وأرضاه عن ظالميه . . . » (٢٣٤ / ٢) .

سبحان الله . يقول الله سبحانه ﴿ فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ .

ويجىء ابن كثير ويقول : والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة .

والجمهور فى مصطلح أهل الفقه ليس جمهور الأمة بل جمهور العلماء والفقهاء . أليس أصوب وأقرب إلى العدل من كلام ابن كثير وأصحابه من الجمهور من سلف الأمة وخلفها قول الصحيفة (وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه) ؟ .

لأن الخيار بين القود والدية حق لولى الدم .

فإذا تمسك الولى بحقه فى الثأر كان على الأمة كلها أن تقوم عليه « ولا يحل لهم إلا قيام عليه » .

وأما حق الله سبحانه وتعالى على القاتل فقد بينه فى الآية التى ذكرناها .

فمن الذى أدخل الفقهاء فى حق الله سبحانه وتعالى ؟ .
الذى أدخلهم هو أنهم كما قلنا جزء من التركيبة السياسية الاجتماعية فى وقتها
أى الاستابلسنت ، سواء أكانت التركية أموية أو عباسية أو مملوكية ، فهذه
الرخص قد وجدت لتبرير جرائم الأمراء .

لقد قال أحمد بن حنبل فى قوله تعالى (فجزاؤه جهنم خالداً فيها . .) الآية
« لقد نزلت فى آخر مائزل ، مانسخها شىء حتى قبض رسول الله ﷺ قال :
أرايت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى ؟ قال : وأنى له بالتوبة وقد سمعت
رسول الله ﷺ يقول : « ثكلته أمه رجل قتل رجلاً متعمداً يجىء يوم القيامة
أخذاً قاتله بيمينه أو بيساره وأخذاً رأسه بيمينه أو بشماله - تشخب
أوداجه دماً فى قبل العرش يقول : يارب ، سل عبدك فيم قتلنى ؟ » ..
(مسند أحمد ١ / ٢٤٠) . .

ثم يذهب ابن كثير فى خبر طويل إلى أن من قتل مائة نفس له توبة .
(٣٣٥ / ٢) .

فهذا كلام الله سبحانه .

وهذا كلام رسوله ﷺ .

وهذا كلام الفقيه .

ألا ترى معي أن نص الصحيفة أقرب إلى روح الإسلام : إذا رضى أهل
المقتول بالدية كان بها ، وإلا فإن الأمة كلها تقوم على القاتل (ولا يحل لهم إلا
قيام عليه) حتى يتم القصاص ويستوفى المواطن في أمة الإسلام حقه . أما حق
الله سبحانه فلا دخل لمخلوق فيه والله سبحانه يستوفيه كما جاء في القرآن
الكريم .

وليس من حق أى إنسان - فقيهاً كان أو غير فقيه أن يتبرع من تلقاء نفسه
ويدخل بين الله سبحانه وحقه ويقول إن الله يتوب على القاتل ولو كان ضحايا
مائة من النفوس .

فهذا تقرب إلى الحكام على حساب الله تعالى ، وذلك أمر لا يجيزه أحد .

وهل معنى ذلك أننا نلوم الفقهاء الذين قالوا هذا الكلام ؟

الجواب : نعم ولكن ليس على الإطلاق .

فإن فقهاء عصور الظلم من الأمويين فصاعداً ربما قام لهم عذر لأنهم كانوا
يعيشون مع ظلمة طغاة يستحلون الدماء ولو أحسوا خوفاً من ناحية أى إنسان
فقيه أو غير فقيه - فتلك هى نهاية ذلك الإنسان .

ولكننا إذا عذرناهم على السكوت عن الظلم فما عذرهم فى التبرع بتجوير
التوبة لمن يقتل الواحد والاثنين إلى المائة .

لقد فعلوا ذلك طلباً للوظائف والجاه .

وهذا مالا يغتفره مسلم ذو ضمير ينظر إلى صالح هذه الأمة .

ولابد من أن نضيف أنه كان هناك دائماً فقهاء من أهل الحق والالتزام والزهد
فى خيرات الدنيا فى سبيل الله .

واللوم الأكبر يقع على فقهاء القرنين الهجريين الأولين ، أولئك الذين تسلموا الأمانة ووضعوا أسس الفقه وقواعد السلوك للفقهاء . فلو أن هؤلاء وقفوا في وجه الظلم وتشددوا وعرضوا أنفسهم للقتل لردوا أهل الطغيان عن الطغيان . وماذا كان يحدث لو قتل منهم مائة أو مائتان كما قتل الكثيرون ممن وقفوا في وجه الأمويين والعباسيين ؟

وهل من المقبول أن تجرى مذبحه كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ / ١٠ أكتوبر ٦٧٠ م ويموت فيها فوق السبعين رجلاً وامرأة وطفلاً معظمهم من آل البيت دون أن يجتمع نفر من أهل العلم ويحتجوا على ذلك الجرم الشنيع . وقد ذكرت كربلاء لأنها مشهورة معروفة للناس أجمعين ..

ولكن لا بد أنه كانت هناك جرائم أخرى لم يحتج عليها أهل العلم في ذلك الزمان فاستمرأ الحكام المرعى ومشى الظلم في أمة الإسلام التي قامت لتوقف الظلم في تاريخ البشر .

كان لا بد من هذا الاستطراد لأن هذه دراسة في بناء أمة الإسلام ومن واجبنا أن نقول من أين طرأ الفساد على أمة قامت لتوقف الفساد .. ونعبر إلى وثيقتنا

والمادتان ١٩ و ٢٠ تؤكدان المسؤولية الجماعية للأمة الإسلامية عن سلامتها الداخلية ، أى عن الحفاظ على الحق والقانون وكرامة الإنسان داخل الأمة ، وجدير بالملاحظة أن المسؤولية عن أمة الإسلام وشئونها جماعية ، وهذه المسؤولية تجعل القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنها هذه الصحيفة تجعل للأمة شخصية وقوة معنوية دون أن تجرد المواطن في الأمة من مسؤوليته الفردية ، داخل حدود الجماعة ، وذلك كان مصدر القوة الكبرى لأمة الإسلام ، فإنه جعلها ضميراً حياً

- متحركاً ، ثم جاء المستبدون والطغاة فجردوا الأمة من هذه المسؤولية وزعموا أنهم أولياء الأمور وأصحاب المسؤولية فكانت هذه بداية التدهور الخطير . .

١٩- « وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه » .

٢٠- « وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل » . والمحدث هو الذى يقترب جناية في حق فرد من أفراد الأمة أو في حق الأمة كلها . . فهنا نجد الصحيفة تحرم على كل عضو من أعضاء الأمة مقر بما في هذه الصحيفة أو العهد أو الميثاق أن ينصر المجرم أو يؤويه لابد أن يسلمه للأمة لتأخذ بحققها منه وهذه مسئولية فردية مفروضة على كل مسلم ، وهى مسألة ضمير أولاً ثم مسألة حق من حقوق الله على رجال الأمة واحداً واحداً .

فالله سبحانه يلعنه ويغضب عليه يوم القيامة ، وأما الأمة فلا تأخذ منه صرفاً ولا عدلاً أى تقاطعه فلا تعامله (صرف) ولا تقبل منه شهادة (عدل) .

ولم يكن صواباً من الشرعيين وأولى الراى أن يعفوا الأمة من هذا الواجب وتلك المسئولية وينقلوها إلى من يسمونه الإمام ، لأن ذلك أخرج الأمة من المسئولية السياسية والمعنوية عن مصيرها بينما ينص القرآن والسنة على أن مسئولية المؤمنين عن أمتهم مسئولية فردية وجماعية . . .

والمادة العشرون تقول : « إنه مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وهذه المادة مؤيدة حرفياً تقريباً بنص الآية ١٠ من سورة الشورى :

﴿ وَمَا اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

وتلى ذلك مجموعة من المواد (٢١ - ٢٣) كلها خاصة باليهود وعلاقتهم بأمة المدينة، ويمكن اعتبار هذه المواد جزءاً من الصحيفة، ويمكن كذلك اعتبارها معاهدة خاصة باليهود ألحقت بها وفي كلتا الحالتين فهي بصفاتها جزءاً من الكتاب أو الصحيفة أو الدستور تعطينا مثلاً مما يمكن أن تكون عليه علاقة الأمة بجماعة أخرى تخالفها في الدين . إما مشتركة معها في نفس الوطن وإما مجاورة لها يتوقف على صداقتها مع الأمة أو ولائها أمان الأمة نفسها . .

وواضح أن أمة المدينة لم تجد مايدعو إلى إرغام اليهود على الدخول في الإسلام، فلا إكراه في الدين مادام الرشد قد تين من الغي ، فالأمر في دخول الناس في الإسلام مرهون بالهدى الذي يرزقه الله لمن يشاء ، ومادام الأمر كذلك فليعيشوا مع المسلمين إذا كانوا من أهل المدينة المقيمين فيها قبل الإسلام ، فإن الإسلام لا يرضى أن يخرج إنسان من بلده بسبب مخالفته للأمة في الدين إذا كان مخلصاً صادقاً بينه وبين المسلمين حلف أو عهد أو ميثاق ، بل له أن يشترك مع المؤمنين في الدفاع عن الأمة ووطنها على أن ينفق من ماله في الدفاع مع المؤمنين . . .

هذا موضوع هذا القسم من الصحيفة الذي يتكون من ست مواد واحدة منها تتكون من سبعة بنود . ونظن أن هذا القسم من الصحيفة كتب بعد « أحد » مباشرة أى بعد ٧ شوال سنة ٣ هـ / ٢٣ مارس ٦٢٤ م فقد تعرضت المدينة وأمنها خلال هذه المعركة لمحنة كبرى نجت منها بفضل الرسول ﷺ وثباته وبُعد نظره ، وكان لابد بعد أن كتب الله للأمة النصر أن يتحدد الموقف مع من في وطنها من اليهود ، فإن رسول الله كان قد عقد معهم بعد أن استقر في المدينة وقامت الأمة عهداً على النصر والأسوة، وقد جاء ذكر ذلك العهد في فاتحة الصحيفة ، وقد رأينا أن بعض المؤرخين يقولون : « إنه شرط لهم واشترط

عليهم » ، ولكن اليهود بدأ عليهم القلق بعد بدر ، فقد ارتفع شأن الأمة وعز الإسلام وتدافع الناس يدخلون فيه ، فأحس اليهود بالخوف من ذلك الدين الذى يعلم أمره وأمر أمته يوماً بعد يوم ، بل بلغ الهلع برجل منهم يسمى كعب الأشرف وكان يسكن وحده فى أطم له فى العوالى ، أى فى التلال الواقعة جنوب شرقى المدينة على مقربة من منازل اليهود بلغ من غيظه أن انتابه ما يشبه الحمى ، فمضى يؤلب على الإسلام ورسوله ويقول شعراً سمجاً يهجو فيه محمداً ﷺ وذهب إلى مكة واجتمع بأهلها وحرصهم على المسلمين حتى ضاق به الرسول ، ولكنه لم يزد على أن تشكى منه بمثل قوله : « اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت فى إعلان الشر وقوله الأشعار » ، وقال رسول الله ﷺ : « من لى بآبن الأشراف » ، فلم يكذب رسول الله يقول ذلك حتى ندب بعض الأنصار نفسه لتخليص الإسلام من ذلك العدو المقروح وكان ابن الأشرف يهودياً من ناحية أبيه ، ولكنه كان قد تربى فى بنى حارثة بن الحارث من الأوس وكان أماً فى الرضاعة لمحمد بن مسلمة وإلى نخلية بن جبير بن عتيك الصحابين المعروفين ، فما كاد هذان يسمعان شكوى الرسول من كعب بن الأشرف حتى مضيا فى عدد قليل من أصحابهما فقتلوا كعب بن الأشرف فى قاع بيته وبين أهله ..

وقد روع هذا الحادث اليهود وأحسوا بقوة المسلمين الصاعدة ، ثم جاءت أحد ومتعرض له المسلمون فيها وتيقظت الأمة للخطر ، فكان هذا كله فيما نرى دافعاً إلى إضافة هذه المواد للكتاب أو الصحيفة بعد التشاور والتفاهم والتراضى على عادة الرسول فى كل شىء كان يعمل متصلاً بالأمة ومصالحها . يقول الواقدى فى حديث الخندق (٢ / ٤٥٤) : « وكان رسول الله حين قدم صالح قريظة والنضير ومن بالمدينة من اليهود ألا يكونوا معه ولا عليه ، ويقال صالحهم على أن ينصروه ممن دهمهم منهم وقيموا على معاقلهم الأولى بين الأوس والخزرج ... » .

وإذا أخذنا في حسابنا تلك العبارة الأخيرة من كلام الواقدى ، وقد وضعنا تحتها خطأ استبانات لنا حقيقة هذا القسم من الصحيفة ، فإن اليهود لا يذكرون فيها باسم بنى النضير أو قريظة ، بل بأسماء حلفائهم من الأوس والخزرج ، والأغلب أن اليهود هم الذين طلبوا ذلك حتى يكون ذلك أضمن لسلامتهم وخاصة بعد تصفية أمر بنى قينقاع بعد بدر ، وسرى مصداق ذلك فيما يلى من نصوص ذلك القسم :

٢١ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محارين .

٢٢ أ - وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته . .

٢٢ ب - وأن ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف .

والمواد ٢٢ ج ، د ، هـ ، ز - تعطى هذه الضمانات ليهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس (أوس مناة) ويهود بنى ثعلبة . . . فاليهود هنا محسوبون على حلفائهم من الأوس والخزرج ومنسوبون إليهم زيادة في أمنهم وضماناً للتوثق منهم وتوقياً لغدرهم .

٢٣ - ج إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته ، والظلم هو التعدى أو العدوان سواء أكان ذلك على النفس (بمخالفة القانون والعرف) أم على الغير ، أما الإثم فهو ارتكاب جريمة أو مقارفة عمل غير قانونى ، وجدير بالملاحظة أن أحداً لم يدرس المعانى الحقيقية لألفاظ مثل : وإثم وعدوان وفسق وفساد وما إليها فى معانيها التاريخية بعيداً عن معانيها اللغوية والدينية ، ولأن أصحاب المعاجم اللغوية وأصحاب الفقه تقليديون جداً فيما يذكرون من المعانى ، ولكننا نريد أن نفهم هنا معنى لفظ « فساد » اجتماعياً وتاريخياً فلا نجد ، والأمر محتاج إلى دراسات مطولة ، فإننا مادامنا نريد أن ندرس السيرة دراسة جديدة ، فلا بد أن

تكون دراستنا على أسس جديدة ، فإن السيرة تدخل في الفقه لأنها جزء كبير من السنة ، ولكنها تاريخ أيضاً وللتاريخ منطقه ومنهجه وطبيعته التي تضيف إلى دراسات السنة والفقه أبعاداً جديدة توسع آفاقها وتزيد فهمنا وتقديرنا لها ، وأشير هنا إلى كتاب قيم في ذلك المعنى رجعت إليه في كتابة السيرة المطولة التي تطبع الآن في لندن ومؤلفه الماني أو هولندي . . .

M. K. Braumamn, The irtual Background of Easrly Islam. Studies in Arab concotte.

Laiden 1972

وهذه المادة ربما تكون صدی لمقتل كعب بن الأشرف ، فإن اليهود أرادوا أن يسلموا من مغبة أى خطأ يصدر عن واحد منهم دون أن تكون لقومه يد فيه ، فإن العقاب (بما في ذلك القتل) يوقع ولا يحل إلا به وبأهل بيته الذين تستروا عليه وعانوه وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٢٤ - وثعلبة - كما قد ذكرنا - كانت قبيلة قديمة من العرب دخلت في اليهودية وأصبحت تحسب منهم إلى جانب بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ولكنهم لم يظلوا على اليهودية عندما جاء الإسلام فدخلوا في جملة المسلمين واندرجوا في غمارهم ، وأصلهم من أزد الشام المعروفين ، وهم منحدرون من بنى جفنة بن عمرو بن مزيقيا جد الأوس والخزرج أيضاً ، وقد هاجروا إلى المدينة واستقروا فيها قبل الإسلام مع فرع صغير من جفنة وتهودوا ثم أسلموا ، وكان هذا القبيل الصغير من بنى جفنة في المدينة موالياً لبنى ثعلبة وليس لدينا مايدل على أنهم كانوا يهوداً أو يهوداً أسلموا ويبدو أنهم طلبوا أن يدخلوا في العهد فأجيبوا إلى ماطلبوا . .

٢٥ - وأن لبنى الشطيبة مثل ماليهود بنى عوف .
وهؤلاء بنو الشطيبة (في نص الوثيقة عند أبي عبيد القاسم بن سلام : شيطبة . ويسميه الطبرى شيطبة ، ولكن الأصح ماذكرناه اعتماداً على

ما جاء في وفاء الوفا للسهمودي (١٥٢/١) وابن حزم في الجُمهرة وهم فرع من بني جفنة الغسانيين هاجروا إلى المدينة قبل الإسلام ونزلوا رانج ، فهم يحسبون في جملة أهل رانج .

وقد ذكرنا هؤلاء جميعاً لتدل على تهافت جماعات أهل المدينة على الدخول في عهد أمة الإسلام وعقدها ، وأراد رسول الله ﷺ أن يؤكد لهم ذلك فأثبت انضمامهم في نص الصحيفة .

٢٦ - والمادة الأخيرة من ذلك القسم تؤكد لنا الأساس الأخلاقي الذي تقوم عليه الوثيقة كلها أو الدستور كله ونصها .

« وإن البردون الإثم » .

أى أن البرمقدم على الإثم ، والمؤمن ينبغي أن يبرولا يأنم ، والبر هو الوفاء وبررت بقسمى أى وفيت به ، ورجل بار أى وفى ولا معنى لأى قانون أو اتفاق أو عقد أو عهد إلا إذا قام على أساس أخلاقي هو البرأى الوفاء .

فلو أنك اتفقت أو عاهدت أو حلفت دون أن تبريشىء من ذلك فلا قيمة لأى عهد أو عقد أو أبيان أو قانون ، لهذا تردد الصحيفة دائماً هذا الأساس الأخلاقي في آخر كل فقرة من فقراتها ، وكأنها تريد أن تؤكد أنها وثيقة قلوب أو ضمائر أو أخلاق ، فإن كل عهود الدنيا لا معنى لها إذا لم تكن قائمة على أساس البرأى الوفاء . والضمير وهو القانون الأكبر الذى ينبغي أن يحكم كل تصرفات المؤمن الحق والمواطن الحق ودليل ذلك أن الجزء التالى من الصحيفة يتكون من ست مواد يقول في المادة الأخيرة منه وهى المادة ٣٢ .

٣٢ - وإن الله على أبر هذا والقسم الذى يليه من الصحيفة ينتهى بالمادة التالية :

٤١ - وأن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره .

ونريد أن نقف هنا عندما أسلفناه من الكلام في هذه الصحيفة وما أردنا إلا أن نبين الأسس الأخلاقية الشورية التي قام عليها بناء أمة الإسلام ، فهي أمة الضمير أمة القلوب أمة الإيثار إنها أمة وليست دولة ، لأن الدولة تدول (دال يدول مضى وانتهى) أما الأمة فلا تدول ولا تزول .

إنها أمة المؤمنين يحكمها الضمير تحكمها القلوب وتسير أمورها أحكام القرآن والسنة ، وكلها أحكام قلوب وضمائر حية ولا يحكمها قانون وضعي ، لأن ذلك القانون الذي يضعه الناس يتغير ويتبدل ومن الخطأ أن يقال إن رسول الله ﷺ كان رجل دولة أو رجل سياسة أو أنه كان سياسياً أو دبلوماسياً أو قائداً عسكرياً ، فهذه كلها صفات دون رسول الله ﷺ ، فإن رجل الدولة يحتال ويدبر ويخفي الحقيقة إذا استدعى الأمر ذلك وحاشا لرسول الله أن يصدر عنه من هذا شيء ، ورسول الله ليس رجل سياسة لأن السياسة تبجح والتظاهر والتخابث والغدر وما إلى ذلك وما أبعد رسول الله ﷺ من ذلك . . وأبعد من ذلك أن يوصف رسول الله بأنه دبلوماسي ، وكلنا نعرف ما يمكن أن يدخل في الدبلوماسية من احتيال وتظاهر وإخفاء للحقائق وكذب إذا اقتضت مصالح أمته ذلك ، أما القول بأن رسول الله كان قائداً عسكرياً فجراً على رسول الله يأبأها إجلالنا له وتوقيرنا إياه ، فإن القائد العسكري وظيفته كسب النصر على الأعداء بأي سبيل ولو أدى الأمر إلى قتل الألوفا من الأبرياء ، وقد أباد نابليون في معركة أوسترليتر أهل قرية كانوا آمنين في السهل فلما سئل في ذلك قال : « أنا قائد عسكري ولست واعظاً وأنا مكلف بأن أنصر رايات فرنسا بأي سبيل وقد نصرتها ، حقاً إن الاعتبارات الأخلاقية لها مكانها ولكن بعد النصر ، فانظروا كيف نعوض هؤلاء المساكين عما أصابهم أما أنا فقد أدت واجبي وكسرت العدو » .

وقد رفع الله سبحانه وتعالى عن رسوله كل مسئوليات السلبيات للقيادة العسكرية والقتال حيث قال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ

رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ . (الأنفال ١٧) .

* * *

لم ينشئ محمد رسول الله ﷺ دولة ، ولكنه بنى أمة وبث في هذه الأمة القرآن وفيما يتصل ببناء الأمة فإن القرآن إيقاظ للضمير الإنساني وإشعار له بقدره وبالقيمة الإنسانية للإنسان ، ضرب رسول الله بقوله وفعله المثل للأمة لتقتدى به ، وانتصرت أمة الإسلام على يديه أى أنه علم الأمة النصر وأعطاها أخلاقيات النصر من إيمان وتضحية وعزة نفس وترفع عن الدنيا وتمسك بالعدل والفضل والبر والخير وتضحية بالنفس في سبيل الأمة والإسلام ، وسجل لها ذلك في حديثه . وفي صحيفته التى هى جزء من ذلك الحديث أو الأثر أو السنة . . .

وترك الأمة لتختار لنفسها الطريق لكى تسير نفسها في طريق النصر والإيمان والعزة والكرامة والخير ، والأمة بعد ذلك حرة في أن تصنع لنفسها الشكل الذى تحكم نفسها به ، فهى أساساً أمة حرة أو اتحاد شعوب حرة ، وكل فرد من أفراد هذه الشعوب انسان حر كريم له مثله الأعلى النابع من القرآن والحديث ، فكما أن أمة الإسلام تضمن لمواطنيها الحرية والكرامة والعزة وسلامة الضمير فإن رسول الله ﷺ رسم لأمته الطريق وتركها تسير فيه على النحو الذى تريد ، فهى إسلامية أولاً وشورية ثانياً وحرية وضمير حتى أَوْلاً وأخيراً .

والضمير الحى في لغة الإسلام هو القلب انيقظ الواعى المؤمن المنتصر الظافر لأنه يقظ واع مؤمن بالله ورسوله .

ورسوله في البداية والنهاية إنسان نبي أو بشر رسول ، ولكنه يقود أمة بأسلوب جديد لا يشبه في شيء أساليب رؤساء الدول أو قادة الجماعات الأخرى ، لأن أمة الإسلام كان ينبغي أن تكون أمة الدنيا كلها . أمة الأمس واليوم والغد ، وينبغي أن تكون كذلك ولكنها شغلت نفسها بشكليات بناء الأمة مع أن المهم هو الروح ، روح الأمة وضميرها الحى وقلبها الواعى ، وهذا القلب الواعى تختار من يسرون أمورها بحرية وبوحى من ضميرها ، يستوى أن يكون خليفة أو ملكاً أو سلطاناً أو أميراً أو رئيساً أو هيئة تحكم معاً فكل هذه سواء مادامت تسير في هدى الإسلام وتسعى لتحقيق مثله العليا في ضوء السراج المنير .

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ . (الأحزاب : الآيتان ٤٥ - ٤٦) .

الفهرس

| | |
|-----|---|
| ٩ | مدخل |
| ١١ | قافلة خرجت تقصد الغد فضاعت في رمال الماضي |
| ٢٥ | البداية عهد وميثاق |
| ٣٩ | البيعة عقيدة والتزام |
| ٥١ | القرآن إلهى بمصدره إنسانى بغاياته |
| ٦٥ | وقامت أمة الإسلام على خطة دقيقة وتوقيت محكم |
| ٨١ | تربية الأمة بالأسوة الحسنة |
| ٩٥ | لا قيام لأمة صالحة بغير قانون |
| ١١١ | تقوم الأمة على الإيمان والجهاد والأخلاقيات |

| | |
|-------------------------------------|-----|
| أمة الإسلام حلف من المؤمنين الأحرار | ١٢٥ |
| إنها أمة الضمير إنها أمة الإسلام | ١٤٣ |
| الفهرس | ١٦١ |

رقم الإيداع

٩٨ / ٨٢٩٢

I.S.B.N

977 - 01 - 5756 - 2

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب